الشروح الرضية

على متون العقائد السلفية

(٤)

تَوْفِيقُ الْكَفِيلِ في التعليقِ على ثَلَاثَةِ الأُصُولِ

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ

تأليف

أبي يحيى محمد بن عبده

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد للَّه، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا.

من يهده اللَّه تعالى فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأشهدُ أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

وبعد:

فهذا شرح من سلسلة «الشروح الرضية على متون العقائد السلفية».

وقد طبع منها: شرح «شرح السنة» للإمام البربهاري، وشرح «شرح السنة» للإمام المزني صاحب الشافعي، وشرح «اعتقاد السلف» للصابوني.

أحاول فيها جهدي أن لا أكرر وأستفيض فيما شرحته قبل في أمور العقيدة، وأعزو لما قررته في مكان آخر من كتبي كـ«لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» وهو مطبوع في ثلاثة مجلدات كبار، و«التوضيحات الجلية في بيان مباحث عقيدة أهل السنة» وغير ذلك من كتبي.

ولم أستفض في الشرح أو أتوسَّع توسُّعًا يخرج القارئ عما أراده المؤلف من كتابه.

وطريقتي في الشروح معروفة فلا أستفيض هنا في ذكرها .

وأما هذا فهو كتاب «الأصول الثلاثة» للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ذكر فيه أربع مسائل : الأولى : العلم، والعمل، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه .

وقصد بالأصول الثلاثة تلك الأسئلة الثلاثة التي ذكر النبي ﷺ أن الميت يُسأل عنها في قبره : من ربك؟ ، وما دينك؟ ومن نبيُّك؟

وذكر حديث جبريل وما يتعلق به، وأشار إلى أشياء أخرى في غضون الكتاب علقنا عليها بما يراه القارئ الكريم .

وأسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا من الثابتين في الإجابة على الأسئلة الثلاثة في القبر، ويؤمننا في وحدته، وأن يجعله لنا روضة من رياض الجنة، لا حفرة من حفر النيران، وأن يؤمننا من الفزع الأكبر . . . نحن وذوينا، إنه سبحانه على كل شيء قدير وهو بالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين .

كتبه

أبو يحيى

محمد بن عبده

بلطيم- كفر الشيخ- مصر

* قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».

الشرح:

- **تمهيد:**

المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ سمَّى كتابه «الأصول الثلاثة».

والأصول: جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره، وهي تُبنى عليها الفروع، وتسميته بالأصول إشارة لأهميتها.

فإن من جهل الأصول فهو للفروع أجهل، ومن حُرم الأصول مُنع الوصول ولابد.

فتسميته للكتاب بالأصول إشارة إلى أهميتها.

- **وأما بداءة الكتاب بالبسملة:**

هذا هو الذي جرى عليه عمل رسول اللَّه ﷺ سنةً فعليةً عند كتابة الرسائل، كان يبدؤها بـ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»، كما في حديث هرقل في «صحيح البخاري»، وكذا كتب سليمان عليه السلام في رسالته إلى ملكة سبأ، فلما قرأت الكتاب قالت: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٠-٣١].

وأما الأحاديث الواردة التي فيها: «**كُلُّ أَمْرٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِـ(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فَهُوَ أَقْطَعُ**»، فإنه لا يصح في الباب خبر، وإنما الثابت: السنة الفعلية، من فعله ﷺ.

- **وعلى هذا جرى عمل الأئمة.**

قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٩):

«وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل، واختلف القدماء فيما إذا كان الكتاب كله شعرًا، فجاء عن الشعبي منع ذلك، وعن الزهري قال: مضت السُّنَّةُ أن لا يكتب في الشعر بسم اللَّه الرحمن الرحيم، وعن سعيد بن جبير جواز ذلك، وتابع على ذلك الجمهور. وقال الخطيب: هو المختار». اهـ

وفي المسألة بحث مطوَّل ليس محله هنا.

ولو لم يذكر البسملة فلا بأس، فقد كان رسول اللَّه ﷺ يبدأ خُطَبَه بـ: «**إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ...**» لم يذكر بسم اللَّه الرحمن الرحيم، كما بينته في غير هذا الموطن، واللَّه الموفق.

والبسملة (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) إنَّما تُشرع في موطن كتابة الرسائل والكتب، وعند قراءة القرآن -غير سورة التوبة-، كما هو معروف، وأما التسمية «بسم اللَّه»: فتشرع في كل حال حتى الوقاع على الزوجة، ولذا بوَّب البخاري بباب التسمية على كل حال وعند الوقاع، وذكر فيه حديث (١٤١): «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ**»، فإذا شرعت التسمية في حال الجماع، وهي مما أُمر فيه بالصمت، فغيره أولى.

* * *

● قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ :

«اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ :

المسألة الأُولَى : الْعِلْمُ :

وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللَّهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ» .

الشرح :

* قوله : «اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللَّهُ-» :

يأمر المؤلف بتحصيل العلم الذي هو إدراك الشيء على ما هو عليه، وكأنه ينبه القارئ والسامع . . . إلى ما بعده، والمقصود هنا : علم خاص بهذه المسائل الأربعة .

وهذا أسلوب أدبي -فيه فتح قلب المخاطب- ودعاء بالخير للسامع أو المخاطب، ولفت نظره بشدة لما يقال له .

● وكثير من العلماء يذكر مثل هذا النوع من الأدب في الخطاب :

كما قال ابن كثير في كتابه «اختصار علوم الحديث» (ص٢١) :

«اعلم -علمك اللَّه وإياي- أن الحديث عند أهله ينقسم إلى صحيح وحسن وضعيف . . .» .

والإمام مسلم ابتدأ كتابه بقوله :

«أما بعد، فإنك يرحمك اللَّه بتوفيق خالقك ذكرت أنك هممت بالفحص عن تعرف جملة الأخبار . . .» .

مقدمة «صحيح مسلم» (١/ ٣) .

وكذا النووي في «شرح صحيح مسلم» (١/ ٧) يقول:

«وبعد -يرحمك اللَّه- فلولا الذي رأينا من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدثًا . . .».

وقال مسلم في باب صحة الاحتجاج بالحديث المعنعن (١/ ٢٩):

«وهذا القول -يرحمك اللَّه- في الطعن في الأسانيد قول مخترع مستحدث غير مسبوق صاحبه إليه ولا مساعد له من أهل العلم . . .».

وهذا وشبهه كثير في كلام أهل العلم.

- **وأما في الأحاديث:**

ففي «صحيح البخاري» (**٣٤٢٧**)، ومسلم (**١٧٢٠**) في شأن حكومة نبي اللَّه سليمان بين المرأتين المدعيتين الولد الباقي الذي لم يأكله الذئب، وأن الذئب إنما ذهب بابن الأخرى، فقال سليمان عليه السلام: «... **ائْتُونِي بالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ يَرْحَمُكَ اللَّهُ هُوَ ابْنُهَا، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى...**».

وهذا عمران بن حصين أراد ان يحرز عقل أبي الأسود الدؤلي فعرض عليه سؤالًا في القدَر طرحه عليه، حاصله: «إذا كان اللَّه تعالى قضى وقدَّر شيئًا على العباد أفلا يكون ظلمًا لهم؟

قال أبو الأسود: ففزعت من ذلك فزعًا شديدًا، وقلت: كل شيء خلق اللَّه وملك يده، فلا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

فقال لي: يرحمك اللَّه إني لم أُرِدْ بما سألتك إلا لأحرز عقلك . .» الحديث. أخرجه مسلم (**٢٦٥٠**).

وفي «مسند أحمد» (**١٧٣٠٥**) بسندٍ حسن عن أبي علي الهمداني قال:

خرجت في سفر ومعنا عقبة بن عامر، فقلنا: «إنك -يرحمك اللَّه- من أصحاب رسول اللَّه ﷺ فأُمَّنا . . .» الحديث.

وفي «مسند أحمد (١/ ١١) بسند منقطع، وله شواهد:

أن أبا بكر الصديق قال: يا رسول اللَّه كيف الصلاح بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]، فكل سوء عملنا جُزينا به.

فقال رسول اللَّه ﷺ: «**غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟**» قال: بلى، قال: «**فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ**».

وأبو موسى الأشعري قال لمن معه: ألا أحدِّثكم حديثًا كان رسول اللَّه ﷺ يحدِّثناه؟ فقلنا: بلى -يرحمك اللَّه- . . . فحدَّثهم بحديث الهرج بين يدي الساعة، وأنه الكذب والقتل . . الحديث.

أخرجه أحمد (١٩٦٣٦) بإسناد صحيح.

وكذا كانوا عند مخاطبتهم للأمراء: «أعزَّ اللَّه الأمير»، «أصلح اللَّه الأمير» . . وهكذا.

والآثار في ذلك كثيرة لا يحتمل المقام ذكر أكثر من ذلك.

كلمة تُقال لتفتح القلوب.

فالمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ يظهر من دعائه بالرحمة للقارئ أنه مشفق عليه وناصح وموجِّه . . . فماله لا ينفتح قلبه لما يُقال، وسيأتي شبيه بذلك بعد في قوله الآتي: «اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ- أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ . . .».

* قوله: «الأُولَى: الْعِلْمُ»:

ثم عرَّف مقصوده من العلم -هنا- فقال:

«مَعْرِفَةُ اللَّهِ»: أي: معرفة حقِّه علينا ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وقدرته...

وهذا يتطلب من الإنسان الاطلاع على ذلك من خلال القراءة في كتاب اللَّه وفي سنة رسوله ﷺ، والتأمُّل في آيات اللَّه الكونية (في الكون) والشرعية (المعروفة في شريعة الإسلام).. كل هذا بالأدلة.

ولذلك أرشد اللَّه تعالى إلى نحو ذلك فقال: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

* «وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ»:

معرفة ما له من الحق علينا، ومعرفة شمائله وشريعته والدفاع عنها، وإجلاله وإجلال أقواله والاعتناء بها تبليغًا للناس وحثًّا لهم على احترامها... ومعرفة أدلة ذلك، وأنه جاءنا بالبينات والهدى، وترتب على ذلك إجابته فيما أمر وطاعته ﷺ من المعتقد.

* «وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ»:

أي: خصائص الدين من كونه دين اللَّه المحفوظ، الذي لا يقبل اللَّه من أحدٍ سواه، كما قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومعرفة ما فيه.

* المؤلف يقول: «يَجِبُ عَلَيْنَا»:

والوجوب من هذا قدر معين يعرفه القاصي والداني، لا يصعب على

أحدٍ أن يعرفه، أما التوسُّع والمزيد جدًّا والاستفاضة، فإن هذا مطلوب الوجوب من طائفة عليها تبليغ الناس، ولا يحسن هذا على وجه التوسعة إلا خاصة من الناس.

وهذا القدر الواجب هو الذي سيُسأل عنه كلُّ إنسان من بني آدم في قبره، سيُسأل عن هذا.

يسأله المَلَكان منكر ونكير: «**مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**» كما في «صحيح البخاري (٨٦) في كتاب العلم.

عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال رسول اللَّه ﷺ: «**وَإِنَّهُ قَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ قَرِيبًا أَوْ مِثْلَ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ (لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ) فَيُؤْتَى أَحَدُكُمْ فَيُقَالُ: مَا عِلْمُكَ بِهَذَا الرَّجُلِ؟**

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ أَوْ الْمُوقِنُ (لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ) فَيَقُولُ: هُوَ مُحَمَّدٌ، هُوَ رَسُولُ اللَّهِ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى، فَأَجَبْنَا وَأَطَعْنَا. ثَلَاثَ مِرَارٍ.

فَيُقَالُ لَهُ: نَمْ. قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ إِنَّكَ لَتُؤْمِنُ بِهِ. فَنَمْ صَالِحًا.

وَأَمَّا الْمُنَافِقُ أَوْ الْمُرْتَابُ (لَا أَدْرِي أَيَّ ذَلِكَ قَالَتْ أَسْمَاءُ) فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي. سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُ».

وفي حديث البراء بن عازب الطويل الذي أخرجه أحمد[1] بإسناد صحيح في ذكر الميت:

«**فَيُعَادُ إِلَى الْأَرْضِ وَتُعَادُ فِيهِ رُوحُه، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الِانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّك؟ وَمَا دِينُك؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: فَمَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ،**

(١) وقد خرجته بتوسُّع في كتابي «الفوائد النيرة» (١٦٩).

فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَلِكَ، قَال: فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ، فَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ أَضْلَاعُهُ، وَيُمَثَّلُ لَهُ عَمَلُهُ فِي صُورَةِ رَجُلٍ قَبِيحِ الْوَجْهِ، مُنْتِنِ الرَّائِحَةِ، قَبِيحِ الثِّيَابِ، فَيُقَالَ: أَبْشِرْ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الَّذِي جَاءَ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثَ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ».

وفي هذا الحديث دليل لقول المؤلف: «يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ ...».

ووجه الدلالة: ترتب العقوبة على عدم المعرفة.

فلو قصَّر الإنسان وما تعلَّم هذه المسائل يأثم، وإنما القدر الواجب هو القدر الذي يستطيعه أيُّ أحد، أما الزيادة فيجب على من تصدى لدعوة الناس حتى صارت الدعوة عليه واجبة، أو ما شابه ذلك.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

كُنَّا في جنازة مع النبيِّ ﷺ فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا، فَإِذَا الْإِنْسَانُ دُفِنَ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، جَاءَهُ مَلَكٌ بِيَدِهِ مِطْرَاقٌ فَأَقْعَدَهُ فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟

فَإِنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه، فَيَقُولُ لَهُ: صَدَقْتَ، فَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَو كُنْتَ كَفَرْتَ بِرَبِّكَ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَيَقُولُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟

فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، فِيُقَالُ لَهُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ.

ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: هَذَا مَنْزِلُكَ لَوْ آمَنْتَ بِرَبِّكَ، فَأَمَّا وَقَدْ كَفَرْتَ فَإِنَّ اللَّهَ أَبْدَلَكَ بِهِ هَذَا.

ثُمَّ يُفْتَحَ لَهُ بَابٌ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقْمَعُهُ الْمَلَكُ قَمْعَةً يَسْمَعُهُ خَلْقُ اللَّهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ».

وهو حديث حسن، أخرجه أحمد (٣/ ٣) وغيره، وخرجته في «الفوائد النيرة» (٣٢٠) وذكرت شواهد أخرى له ترقيه إلى درجة الصحة.

فترتب العقوبة على عدم الإجابة أو المعرفة دليل على وجوب المعرفة.

واعلم -بارك اللَّه فيك- أن الناظر إلى هذه الأسئلة قد يظن سهولة الجواب عليها، ومن هنا ظن الجاهل أنه بمجرد تلقينه إياها بعد الدفن فإنه يسهل عليه الجواب، وهذا وهم وسفه، ثم هو فعل بدعة ليس عليه دليل صحيح، وإن قال به بعض أهل العلم (أعني: مسألة التلقين بعد الدفن)، ولي فيها بحث مستقل يراجع فيها كتابي «جامع أحكام الميت» الجزء الأول، واللَّه الموفق.

فلا يستطيع الجواب هنالك إلا من كان مؤمنًا بذلك في الحياة قبل البرزخ.

وليس بالطبع إذا كان الجواب على ذلك سهلًا اليوم أن يكون سهلًا في البرزخ أو القيامة، نسأل اللَّه أن يسهله ويزلله علينا والقارئ الكريم.

فأمور البرزخ أو الآخرة لا تُقاس على أمور الدنيا.

نسأل اللَّه أن يثبتنا عند السؤال من الملكين، فلا يثبت هنالك إلا من كان على الإيمان في الدنيا.

ولذا قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

والمقصود: أن المؤلف يحثُّ على معرفة اللَّه والرسول ﷺ محمد، ودين الإسلام، مشيرًا بذلك إلى الحديث المشار إليه آنفًا.

وفائدة معرفة ما أشار إليه المؤلف: أنه سبيل للنجاة من عذاب القبر.

وتلخيص المراد[1]:

أن معرفة اللَّه التي أوجبها المؤلف تستلزم قبول ما شرعه اللَّه والإذعان والانقياد له، وتحكيم شريعته التي جاء بها رسوله ﷺ.

ويتعرف العبد على ربه بالنظر في الآيات الشرعية في كتاب اللَّه ﷻ وسنة رسوله ﷺ، وفي الآيات الكونية التي هي المخلوقات، فإن الإنسان كلما نظر في تلك الآيات ازداد علمًا بخالقه ومعبوده، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١].

ومعرفة النبي ﷺ تستلزم قبول ما جاء به من الهدى ودين الحق، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والأدلة على هذا كثيرة.

كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وحذَّر اللَّه من المخالفة فقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) بتصرف من «شرح الأصول الثلاثة» للشيخ العثيمين (ص١٧).

* وقول المؤلف: «اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ»:

الوجوب حكم شرعي لابد له من دليل، فما دليله؟

والجواب:

دليله: أن المرء سيُسأل عن هذه المسائل المذكورة في القبر، وعدم معرفته به دليل سوء، والوجوب يُؤخذ من القاعدة: «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب».

والوجوب يُؤخذ -أحيانًا- من ترتيب العقوبة على الفعل أو التقصير في مطلوب كهذا، فهذا دليل لوجوب تعلم هذه المسائل وجوبًا عينيًّا؛ لأنه لا يتم إسلام المرء إلا بتعلُّم هذا، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فكيف يعبد المرء إلهًا لا يعرفه؟! وكيف يتبع نبيًّا أمر اللَّه باتباعه وطاعته، والمرء لا يعرفه؟! وكيف يلتزم المرء بدين لا معرفة له به؟!

بل يجب على المسلم والكافر تعلُّم هذه المسائل، وإن كان لا ينتفع الكافر بذلك إلا بالاعتقاد بقلبه، واللَّه الموفق.

ولا أعلم عالمًا يقول بغير وجوب تعلُّم مثل هذه المسائل.

وقد يُستدل بعموم قوله ﷺ: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ**»، وهو حديث قد صحَّحه بعض أهل العلم، وله طرق كثيرة جدًّا أفرد في مصنف فللمستدل به وجه.

والفرض يعني الواجب عند جمهور علماء الأصول.

- **والمقصود إجمالًا:**

أنه يجب على الإنسان أن يطلب من العلم ما يقوم به دينه، ما تقوم به

عبادته، يصحح به عقيدته، ويقوم به عمله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بطلب العلم، كلٌّ بحسبه.

والعلم الممدوح في نصوص الكتاب والسنة عند الإطلاق والمدح هو العلم الشرعي، العلم بالكتاب والسنة، معرفة اللَّه ومعرفة رسوله ﷺ ومعرفة دين الإسلام.

فثَمَّ قدرٌ يجب تعلُّمه على كل مسلم، مثل: أركان الإيمان، وما بني الإسلام عليه، وأصول الإيمان، وما يجعل عبادته صحيحة سليمة، وكذلك مثل هذه الأصول الثلاثة، وكذلك معرفة الحرام الذي نهى اللَّه عنه مما يتعلق به.

* **وهنا سؤال:**

لماذا عبَّر المؤلف بـ(معرفة نبيِّه)، ولم يعبر بـ(معرفة رسوله) مع أن الرسول أعمُّ من النبيِّ، فكلُّ رسولٍ نبيٌّ من غير عكس؟

والجواب:

يظهر لي: أن ذلك موافقة لما في الحديث.

كما في «صحيح مسلم» (٢٨٧١) عن البراء بن عازب: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. قال: نزلت في عذاب القبر، فيُقال له: مَنْ رَبُّكَ؟، فيقول: رَبِّيَ اللَّهُ وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ، فذلك قوله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ﴾.

وفي حديث البراء بن عازب الذي أخرجه أحمد بسندٍ صحيح في ذكره ﷺ سؤال الملكين:

«**فَيَنْتَهِرَانِهِ وَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**».

وقد خرجته في «الفوائد النيرة» (٢٦٩).

● **وَأَمَّا مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلام:**

أي: الدين الذي بعث اللَّه به محمدًا ﷺ، فمن يبتغ غيره دينًا فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين، فالدين عند اللَّه هو الإسلام.

فالآن لا يقبل اللَّه من أحدٍ دينًا سواه.

كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهَودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**».

أخرجه مسلم (١٥٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هذا هو الدين الذي نسخ الشرائع من قبله، وهو الدين الكامل.

فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]؛ أي: في زمانه.

كما كان الذين مع موسى عليه السلام مسلمين، وكذا مَنْ آمن بكلِّ نبيٍّ هو مسلمٌ في زمانه.

● **قوله المؤلف رحمه الله: «بالأَدِلَّةِ»:**

أي: كل الذي تقدم تعرفه بدليله.

والأدلة: جمع دليل، وهو المرشد إلى المطلوب.

وينقسم إلى سمعي، وهو الذي أتانا عن طريق الوحي وعلمناه عن طريق السمع، وعقلي ثبت بالنظر والتأمُّل، مثل التأمل العقلي في دلائل ألوهية اللَّه سبحانه ودلائل نبوته ﷺ، وفي دين الإسلام ومحاسنه.

واعلم أنَّ التعبُّد للَّه إنما يكون بالدليل السمعي لا بالرأي، لقول

عليٍّ ﷺ: «لولا أنِّي رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يمسَحُ على ظاهر خُفَّيْهِ لقُلتُ: إنَّ المسحَ على أسفله أو باطنه أولى» أخرجه أبو داود (١٦٢) وغيره، واختلف في لفظه، وصوَّب الدارقطني في «العلل» (٤/ ٤٦) نحو اللفظ الذي ذكرناه موقوفًا على عليٍّ ﷺ، فالدين بالدليل السمعي.

● **وقوله: «بالأَدِلَّةِ»:**

إن قيل بأنها عائدة على الثلاثة [التي هي: معرفة اللَّه، ومعرفة نبيه ﷺ، ومعرفة دين الإسلام].

كان مراد المؤلف: أن المعرفة بهذه الثلاثة يلزم معرفة الأدلة عليها، وإن كان ذلك كذلك؛ فلا ينفع المقلِّد عمله لأنه يقلِّد الأعلم بغير دليل -في الجملة-، ولا معرفة للمقلد بالدليل، فهو من أهل التقليد، والمستدلُّ إنما هو من أهل البرهان لا من أهل التقليد، والتقليد في أصول العلم جائز لمن لم يتمكن من معرفة الأدلة.

فإن قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فيه إطلاق السؤال عن أصول الدين وفروعه، ويدل على جواز التقليد في كل مسائل الدين لاسيما للعامي الذي لا يفهم الأدلة ولا قدرة له على معرفتها.

فاشتراط تعلُّم الأدلة في المسائل السابقة يلزم منه الحكم بعدم صحة توحيد وإيمان العامة المقلِّدين لأنهم ما عرفوا الأدلة الشرعية، فماذا؟!

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ، إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى**». أخرجه البخاري (٢٥).

فلم يشترط معرفة الأدلة حتى تعصم دماؤهم.

وقد كان الصحابة ﷺ يفتحون البلاد فما كان ثَمَّ اشتراط معرفة الأدلة، هذا لم نسمع عنه، واللَّه أعلم.

فإسلام من نطق بالشهادتين بيقين صحيح، ولو لم يَعرف دليلَ ذلك.

وعلى ذلك أدلة لا يأتي عليها الحصر فيها عصمة دم الإنسان بقول: (لا إله إلا اللَّه) وإن لم يعرف دليلها.

كحديث أسامة بن زيد الذي فيه تعنيفه ﷺ له لكونه قتل رجلًا من المشركين بعد أن قال: (لا إله إلا اللَّه) وظهر لأسامة ﷺ أنه قالها تقية، وحديث في «صحيح البخاري» (٦٢٦٩)، ومسلم (٩٦).

فإن قيل: كيف وقد قال صاحب القبر: «هَا هَا لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا ...» الحديث؟

فالجواب:

أن هذا لم ينتفع بهذا لكونه منافقًا، كما في سياق الحديث: «**وَأَمَّا الْفَاجِرُ -وَفِي رواية: الْكَافِرُ-**» فَكَانَ مُنَافِقًا ويقول كما يقول الناس فلم ينفعه ما كان يظهره للناس في الدنيا، واللَّه الموفق.

* * *

* ثم ذكر المسألة الثانية فقال:

«الْعَمَلُ بِهِ».

الشرح:

أي: العمل بأثر العلم الذي تعلمه الإنسان (الصلاة والزكاة والحج . . .) فهذا هو ثمرة العلم والمعرفة وهو روح العلم، لا كاليهود الذين لم يعملوا، والنصارى الذين عملوا بلا علم، وهذا يحث عليه كثير من الآيات والأحاديث.

حتى أن اللَّه يبكِّتُ أهل الكتاب على عدم العمل بالعلم.

ويقول النبي: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود: ٨٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠].

ولا يخفى حديث الذي «**يُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِالرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلَانُ مَا لَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنكَرِ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، قَدْ كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهُ وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهُ**».

وهذا في «صحيح البخاري» (٣٢٦٧)، و«صحيح مسلم» (٢٩٨٩).

والأدلة كثيرة في الحث على العمل بمقتضى المعرفة.

ولذلك يقول المؤمن في القبر حينما يسأل عن الربِّ والدين والنبي ﷺ يقول: «**... هُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَجَبْنَا وأَطَعْنَا**»، كما في رواية مسلم (٩٠٥).

وقلَّ أن توجد آية في شأن الإيمان في القرآن إلا وفيها الجمع بين الإيمان والعمل ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تردف بالعمل، فلابد من العمل، وإلا فالإرجاء الخبيث.

والأدلة في هذا الباب كثيرة.

المعرفة وحدها لا تكفي إلا عند غلاة المرجئة الضالين إذ قد قالوا: الإيمان: هو المعرفة.

ويلزم من قولهم هذا: إثبات الإيمان لفرعون إذ قد قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، فهل صار فرعون مؤمنًا بهذه المعرفة؟!

وكفار قريش وأبو طالب عرفوا أن محمدًا ﷺ رسول، وهو على الحق، لكن لم يعملوا فلم تنفعهم المعرفة.

واليهود والنصارى الذين آتاهم اللَّه الكتاب يعرفون رسول اللَّه ﷺ كما يعرفون أبناءهم، فهل صاروا بذلك مؤمنين؟

بل إبليس يعرف ربَّه ويُقسمُ بعزَّته وما نفعه ذلك.

فالمعرفة وحدها لا تكفي، لابد من العمل.

ولذلك كان المعتقد الصحيح -وهو معتقد أهل السنة والجماعة وفقهم اللَّه- أن الإيمان قول وعمل واعتقاد.

فقولٌ بلا عمل ولا اعتقاد لا يصلح، وقد قال المنافقون، بل وعملوا أعمالًا، ولم ينفعهم لسوء معتقدهم.

واعتقاد بلا عمل اتهام لصاحب الرسالة، ودعوى عارية عن البرهان.

فلابد من القول والعمل والاعتقاد.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَا فَعَلَ فِيه**...» الحديث، وهو حسن.

أخرجه الدارمي (١/ ١٣٥) والترمذي (٢٤١٧) وغيرهما، وتمام تخريجه في «الفوائد النيرة» (٤٩٦).

واعلم أنَّ مِنْ العمل تَرْكَ ما أمر اللَّه ورسوله ﷺ بتركه امتثالًا.

واعلم -علمني اللَّه وإياك- أن العلم النافع هو العلم الذي يتبعه عمل، ليس هو العلم الشرعي فحسب، إنما هو العلم الشرعي الذي يتبعه العمل، فإذا لم يكن ثَمَّ عمل فالعلم -وإن كان نافعًا في نفسه- لكنه غير نافع لهذا الشخص بعينه، وإن كان نافعًا لغيره ممن يعمل به.

وإذا ذكر العمل في الإسلام تضمَّن شرطين:

الأول: العمل بإخلاص، أن يكون العمل للَّه وحده لا شريك له خالصًا لا رياء فيه، ولا لسمعة، ولا لدنيا . . . إلخ

الثاني: أن يكون العمل موافقًا لطريقة عمل رسول اللَّه ﷺ فلا يُعبد إلا اللَّه، ولا يُعبد إلا بما شرع سبحانه على لسان رسوله ﷺ.

لابد من العلم والعمل معًا.

ومن العمل ما أرشد إليه المؤلف.

* * *

* قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«الثَّالِثَةُ: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ».

الشرح:

الدعوة إلى اللَّه تعالى هي من العمل، وإنما ذكرها خاصة بعد العام لمزيد الاختصاص، دعوة الناس إلى التعريف باللَّه وحق اللَّه على عباده، وتعريف الناس بألوهيته وربوبيته وبأسمائه وصفاته . . . إلخ

وكذلك دعوة الناس إلى التعريف بالنبي ﷺ وبيان حقوقه والدفاع عنه وعن سنته ضد المنحرفين والمبتدعين والزائغين وأهل الزيغ والزندقة . . .

وكذلك دعوة الناس إلى معرفة دين الإسلام وما فيه من محاسن وما يدعو إليه من فضائل . . . إلخ

أمر اللَّه تعالى بالدعوة إليه فقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، كلٌّ على وسعه، وعلى حسب طاقته، الدعوة مع الزوجة والأولاد والجيران . . كلٌّ على حسب وسعه، ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها.

وقال: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

البصيرة في العلم، والبصيرة في حال المدعو وما يتحمله وما لا طاقة له به، والبصيرة بالقدر المطلوب الدعوة به وإليه.

والدعوة إلى اللَّه لا تقتصر على الخطابة والمحاضرة.

بل المقالات النافعة من الدعوة إلى اللَّه، والتأليف النافع الحق، وكذا

في المجالس الخاصة، والمناقشة والسؤال والجواب.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمْ**».

أخرجه البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٦).

ويقول -عليه الصلاة والسلام-: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا**».

أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فـ«**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»، كما قال رسول اللَّه ﷺ فيما أخرجه مسلم (١٨٩٣).

وقد أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن فقال له: «**إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ: عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ ...**» الحديث.

أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

وفي «صحيح البخاري» (٢٩٤٢) قول رسول اللَّه ﷺ لعليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ...**» الحديث، وقد تقدم ذكره.

هكذا دعى المؤلف إلى العلم ثم العمل ثم الدعوة إليه سبحانه بشروطها: الحكمة - الموعظة الحسنة - الأسلوب المناسب والتحلي بآداب الداعي من الرفق والجدل بالتي هي أحسن، والفقه، ويدخل في

الدعوة التصدي لشُبَه المنحرفين المبتدعين الضالين، وتفنيدها بالأدلة كما فعل النبي ﷺ يوم أن قال الصحابة: «اجعل لنا ذاتَ أَنْوَاطٍ كما لهم ذاتُ أنواط»، كما في «سنن الترمذي» (٢١٨٠) بإسنادٍ صحيح.

وكما في صدر «صحيح مسلم» (٨) كما أتى التابعون عبدَ اللَّه بن عمر رضي الله عنهما يسألونه عن مقولة معبد الجهني، فنعم الحكمة كانت، وهذا باب واسع الكلام فيه يسع مصنفًا.

* * *

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

«المسألة الرَّابِعَةُ: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ».

الشرح:

ذكر المؤلف هذه المسألة (الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى) عقب ذكر الدعوة إلى اللَّه والعلم، فيصبر في طلب العلم والدعوة إلى اللَّه . . فهذه ضرورة معلومة، والداعي الصابر كأنه قام مقام الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-، وكيف لا وقد نص رسول اللَّه ﷺ على أنهم وَرَثَةُ الأنبياء.

هذه لازمة من لوازم الدعوة إلى اللَّه تعالى وطلب العلم والمعالي.

من اجتهد في الدعوة إلى اللَّه فإنه يُبتلى حتمًا ولا بد، بل ربما كانت من دلائل صدق الدعوة أن يُبتلى الداعي المتبع لرسول اللَّه ﷺ كما ابتلي الداعي الأول ﷺ، وهذا بديهي يبتلى الأتباع بما ابتلي به المتبوع.

وأشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دنيه صلابة زيد له في البلاء.

وقول الشيخ: «الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ» يعود على كل ما تقدم من طلب العلم والعمل به والدعوة إلى اللَّه . . .

وقد قال تعالى في بادئ أمر نزول الوحي للنبي ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

فمن قام بالدعوة إلى اللَّه فليوطن نفسه على الصبر على الجهَّال والأجلاف والمبتدعين والزائغين والملحدين . . . وغيرهم من أعداء الرسالة.

وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ**»، وهو صحيح، أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فعلى الداعي إلى اللَّه أن يصبر على الاعتراضات ويثبت، لا يفقد التوازن ويترك الدعوة لأجل إعراض الناس وانصرافهم عنه، أو تخليهم عنه وعن قبول دعوته ونشرها . . كلا كلا . . . ففي هذا المعترك مزلة أقدام وهزيمة نفسية.

فقد يختل توازن الداعي لضيق الأمر عليه أو غربته أو جهل الناس عن عظم ما عنده، وهو عالم فيختار اختيارًا يضرُّ به يكون في حقيقته انتكاسةً وتوليًّا من ميدان الدعوة، ولا يشعر بهذا إلا بعد زمن وقد لا يمكنه الرجوع، فالصبر الصبر والثبات الثبات وعدم المبالاة بالعوائق والمحن . . . فهذا أمر معروف.

فالصبر أفضل ما يوفق اللَّه العبد إليه.

وهذه المسألة الرابعة التي ذكرها المؤلف تشمل الدين كلَّه، ولذا فهي جديرة بالعناية، فإن المرء ينتفع بذلك نفعًا كبيرًا عظيمًا.

فاللَّه تعالى بيَّن هذه السنة الكونية فقال: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقد صبر رسول اللَّه ﷺ حين ضربه قومه وقتلوا أصحابه واتهموه كذبًا وزورًا ورموه في عرضه . . و . . .

وهو ثابت صابر كالجبل لم تزحزحه العوائق ﷺ.

وقد أرشد رسول اللَّه ﷺ إلى عدم العجلة فقال حينما شكى إليه خباب ابن الأرت رضي الله عنه والصحابة ما يلاقونه من كفار مكة وهو في ظل الكعبة، فقالوا: يا رسول اللَّه ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟

قال: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**».

أخرجه البخاري (٣١٢).

فمع الصبر الفَرَج.

وما كانت خلال حميدة ولا سجايا صالحة ولا أعمال حسنة إلا وكان منشأ الاعتياد عليها بل والقيام بها ابتداءً إلا بالصبر.

فالصبر منشأ الخير، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ﴾ [السجدة: ٢٤].

وقال: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ﴾ [الإنسان: ١٢-١٣].

فهنيئًا ثم هنيئًا لمن أنعم اللَّه تعالى عليه بالصبر.

وحقًّا الصبر مفتاح الفرج.

* * *

* ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك بسورة العصر فقال بعد ذكر المسائل الأربع:

«وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]».

الشرح:

يُقسم اللَّه تعالى في هذه السورة بمعظَّم سمَّاه العصر، اختلف العلماء في تسميته(١).

واللَّه تعالى يُقسم بما شاء من خلقه «والليل إذا يغشى، والعصر، والشمس وضحاها، . . .»، أما نحن فلا يجوز لنا أن نقسم إلا باللَّه لقوله ﷺ: «**مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**»، وقال: «**إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ**» أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٦٤٦) عن ابن عمر عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

أقسم اللَّه سبحانه على أن الإنسان في خسر -أي: غبن- إلا من عمل هذه الأعمال الأربعة: الإيمان باللَّه والعمل الصالح والتواصي بينه وبين غيره، وهو النصح لكل مسلم بالحق والإيمان، والصبر على الحق والعمل الصالح والدعوة إليه، فعلق المكسب على تحصيل هذه الأربعة.

(١) منهم من قال: هو الدهر؛ أي: الزمان الذي تقع فيه حركات بني آدم، أو هو عصر النبي ﷺ، ومنهم من قال: هو عمر ابن آدم، ومنهم من قال: هو صلاة العصر أو وقتها وهو وقت معظم في الشريعة، وكلها أقوال لا تضارب فيها، وثَمَّ أقوال أخرى في تفسير العصر.

هذا نهاية الكمال.

وقوله: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾: دليلٌ على العموم بقرينة الألف واللام، وقرينة قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ . . .﴾، فالإنسان هنا، أي: البشر.

والخسارة خسارة مطلقة، خسارة مبينة، وهي خسارة الدنيا والآخرة عياذًا باللَّه، وخسارات أخرى، خسارة صحة، خسارة مال، خسارة أولاد . . . إلخ.

وإنما خص اللَّه تعالى التواصي بالحق والصبر مع أنهما داخلان في العمل الصالح في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فإن التواصي بالحق والصبر من الأعمال الصالحة، وذلك لعظم شأنهما وأهميتهما، فإن مصالح البلاد والعباد تقوم على التواصي بالحق والصبر.

فنعم النصيحة نصح بها لقمان ولده مشيرًا إلى أن العمل بالحق والتمسك به لا بد أن يتبعه ابتلاء، فلا بد من الصبر، فقال لولده وهو يعظه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

وفي السورة المذكورة (سورة العصر) دليل على وجوب العمل بالعلم، وهو علامة العلم النافع، أنه يبعث على العمل، فإذا لم يبعث على العمل كان نكبة على صاحبه، وكان من العلم الذي لا ينفع، واللَّه الموفق.

كما أن في السورة دليلًا على وجوب الدعوة إلى العلم والعمل لقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: أوصى بعضهم بعضًا بذلك.

والتواصي بالحق يشمل أن يوصي الإنسان نفسه بالحق ويأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر، كما يفعل ذلك مع غيره أيضًا.

كما أن في الآية دليلًا على وجوب الصبر على الأذى، وعلى الطاعة، والصبر على مصائب الدنيا؛ لأن اللَّه تعالى ذكر الخسران لمن لم يكن فيه هذه الخصال، ولا يُوصف الإنسان بالخسران إلا إذا ارتكب محرمًا.

ولذلك كان رسول اللَّه ﷺ يبايع الناس على النصح لكل مسلم، ويلقِّن الصحابة عند البيعة: «**وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ**» كما في «الصحيحين»، وفيهما جَمْعُ الدين في النصيحة فقال ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قالوا: لِمَنْ يا رسول اللَّه؟ قال: «**لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكَتَابِهِ وَلِأَئِمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**».

والمقصود: أن سورة العصر هذه جمعت من الخير ما جمعت، ولذا نقل المؤلف:

• قول الشافعي: «لَوْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلَّا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ».

يقصد في بيان المنهاج الصحيح الذي يسير عليه المسلم لينجو من الخسران، وهذا قول مشهور عن الشافعي في كتب الشافعية، ولم أقف عليه في كتبه ولا في كتب غيره مسندًا.

وقد ورد أن الصحابة كان يذكِّر بعضهم بعضًا بهذه السورة:

فأخرج الطبراني في «الأوسط» (٥١٢٤) ومن طريقه ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٢١٦) -على سقط في إسناده- بإسناده من طريق عبيد اللَّه بن عائشة عن حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي مدينة وكانت له صحبة قال: كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرَّقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ . . .﴾ ثم يسلم أحدهما على الآخر.

وقال الطبراني: «لا يروى هذا الحديث عن أبي مدينة إلا بهذا الإسناد.

وأبو مدينة هو عبد اللَّه بن محصن الأنصاري الخطمي مختلف في صحبته.

والراجح أنه ليس بصحابي، وإن كان أكثر أهل العلم على أن له صحبة؛ لأن الحديث الذي يثبت صحبته لا يصح، وهو حديث: «**مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ...**» رواه عنه ابنه وهو مجهول.

وقيل: إن حديثه هذا مرسل.

وفي هذا الحديث جزم ثابت بأن له صحبة فأنى لثابت معرفة ذلك؟!

وفي الطريق إلى حماد عبيد اللَّه بن عائشة.

قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٠٧) عنه: إنه ثقة، وعليه فالإسناد ثابت لولا الإرسال.

إلا أن البيهقي في «الشعب» قال بعد أن أخرجه: «رواه غيره عن حماد عن ثابت عن عقبة بن عبد الغافر قال: كان الرجلان . . .» فذكره.

قلت (محمد): ولم أقف على من رواه عن حماد على هذا الوجه، وعلى كلٍّ فعقبة بن عبد الغافر تابعي ثقة، فحكايته تكون عن الصحابة غالبًا فإنه يروي عن بعض الصحابة، ولو صح هذا عن الصحابة لنقل إلينا بالتواتر لكثرة تلاقيهم، فهذا إشكال واللَّه أعلم.

وسوق المؤلف قول الشافعي ليستأنس بفهمه واللَّه أعلم.

والمقصود من كلام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن السورة جمعت الخير بحذافيره -إجمالًا لا تفصيلًا-، ففي السورة بيان المنهاج العام الذي يسير عليه المؤمن.

* * *

*** ثم نقل المؤلف أيضًا ما يؤيد سبق العلم والمعرفة على العمل فذكر تبويب البخاري واستدلاله بالآية فقال المؤلف:**

«**بَابُ العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، **فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ**».

لفظ البخاري عقب الآية: «فبدأَ بالعِلْمِ» اهـ.

قال الحافظ (١/ ١٦٠): «أي: حيث قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾، والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فهو متناول لأمته». اهـ

وكأنه أخذه مما رواه أبو نعيم في «الحلية» **(٧/ ٢٨٥)** بإسنادٍ فيه مبهمين، عن الربيع بن نافع الحلبي الطرسوسي قال: سئل ابنُ عيينة عن فضل العلم فقال: ألم تسمع إلى قوله حين بدأ به فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ثم أمره بالعمل فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ . . .

وهذا الاستدلال كالاستدلال بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النساء: ١٠٨]، فإذا لم يتعلم أولًا من أين تأتي البصيرة، فإن العمل بغير علم انحراف، وقد قال ﷺ: «**إِنَّ اللَّهُ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**».

أخرجه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣)، عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

وفي حديث وفد عبد القيس الذين أتوا النبيَّ ﷺ وسألوه فأمرهم بأربعٍ

ونهاهم عن أربعٍ، ثم قال له: «**احْفَظُوهُنَّ وَأَخْبِرُوا بِهِنَّ مَنْ وَرَاءَكُمْ**».

أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) عن ابن عباس.

فنبههم ﷺ على الحفظ أولًا، ثم الإخبار والتعليم لغيرهم ثانيًا، ولذلك ما كان رسول اللَّه ﷺ يرسل أيَّ أحدٍ إلى الأماكن للدعوة.، إنما كان يرسل المؤهلين للدعوة الذين ويأمرهم بما يهمهم في مكانهم.

فبلاد الشرك يلزم من يُرسل أن يكون عالمًا بما هو شرك وما هو ليس بشرك حتى ينبههم عليه، فلا يجوز أن يُرسل شخص في بلاد تعجُّ بالشرك: عبادة الأولياء، والحلف بغير اللَّه، والنذر لأصحاب الأضرحة والتصوف . . . وهو لا يعلم أن هذا شرك ومخالفة، هذا يجلس يتعلَّم أولًا لا يُرسل، يتعلَّم أولًا ثم يذهب يعلِّم، كما هي السنة في فعله ﷺ.

العلم قبل القول والعمل؛ العلم قبل الدعوة، ولذلك في حديث مالك ابن الحويرث قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ في نَفَرٍ من قومي، فأقمنا عنده عشرين ليلةً، وكان رحيمًا رفيقًا، فلما رأى شَوْقَنا إلى أهالينا قال: «**ارْجِعُوا فَكُونُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ** ...» أخرجه البخاري (٦٢٨)، ومسلم (٦٧٤).

وقد قال عمرُ رضي الله عنه: «تَعَلَّمُوا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا».

وقد ورد عن عمر رضي الله عنه قال: «مَنْ سَوَّدَهُ قَوْمُهُ عَلَى الفِقْهِ كَانَ حَيَاةً لَهُ ولَهُمْ، وَمَنْ سَوَّدَه قَوْمُهُ عَلَى غَيْرِ فِقْهٍ كَانَ هَلَاكًا لَهُ ولَهُمْ» وسنده غير ثابت.

أخرجه الدارمي (٢٥٧)، وابن عبد البر في «الجامع» (٣٢٦).

لكن صحَّ أنَّ عمرَ رضي الله عنه أقرَّ إمارة مولًى على الناس لكونه من القُرَّاء لكتابِ اللَّه وقال: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ آخَرِينَ». وهذا في «صحيح مسلم» (٨١٧).

والمقصود: أن العلم أولًا قبل الإمارة والدعوة والعمل و. . . فلا فعل ولا تديُّن ولا دعوة إلا بعلم، فإن الضلال يأتي من العمل بغير علم.

وهذا صحيح معقول؛ فإذا لم يتعلم كيف يعمل، كيف يصبر، كيف يؤمن. . . ؟!

وهل ضلَّ الخوارج إلا بسبب عملهم بغير علم، فقد كانوا يتعبدون عبادة لم يُر لها مثيل، فلقد كان أصحاب رسول اللَّه ﷺ يحقرون صلاتهم إذا قارنوها بصلاة الخوارج، ويحقرون صيامهم إذا قارنوه بصيام الخوارج، ويحقرون قراءتهم للقرآن إذا قارنوها بقراءة الخوارج[1].

ومع ذلك فإن الخوارج يقولون من قول خير البرية (من القرآن والسنة) يتأوَّلونه يحسبونه لهم وهو عليهم.

قد رآهم ابن عباس يوم أن ذهب يناظرهم فقال:

«. . . فدخلتُ على قوم لم أَرَ قومًا قط أشد اجتهادًا منهم: أيديهم كأنها ثَفِن الإبل، ووجوههم مُعلَّمة من آثار السجود»[2].

لكن ما يزدادون بعبادتهم من اللَّه إلا بعدًا لحيدتهم عن المنهج.

أهل بدع، شر الخلق والخليقة، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، يقرأون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، شرُّ قتلى تحت أديم السماء، كلاب النار، خير قتيل من قتلوه، لو يعلم الجيش الذي يقتلهم ما له عند اللَّه لاتكلوا على العمل. . . . .

---

(١) راجع أحاديثهم في «الصحيحين» ووصفهم وقد ذكرناه في كتابنا «مناصحة الخوارج».

(٢) وهذا الخبر الطويل أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٨٦٧٨) بإسناد صحيح.

قال ﷺ: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»، وفي رواية: «**قَتْلَ ثَمُودَ**».

لو تراهم في ضلالهم وغيِّهم وانحرافهم ومروقهم من السنة.

لو تراهم وقد فسدت أفهامهم -مع حداثة أسنانهم-.

لو تراهم في استدلالهم وسوء أدبهم مع الكبار من أمثال أصحاب رسول اللَّه ﷺ، وقد قاتلوهم وكفروا منهم ابن عمر وابن عباس[1]، بل همُّوا بقتل الصحابة، بل قتلوا بعضهم وعبادة بن قرص وعلي بن أبي طالب . . . بل قتلوا من الأفاضل من قتلوا، وأساءوا الأدب مع أميرهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب خير أهل الأرض يومئذ -يا ويحهم- ولا عجب فقد فعل أمامهم الأول -والذين خرجوا من ضئضئه- قال لرسول اللَّه ﷺ: «يَا محمَّدُ اعْدِلْ»، «اعدل يا رسولَ اللَّه لَئِنْ كَانَ أَمَرَكَ اللَّه أن تعدل فما أراك تعدل»، «هَذِه قسمة ما أريد بها وجه اللَّه» . . . !!!

لو أبصرتَهم وقد قال عبد اللَّه بن طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ عنهم:

«لما قدمت الحرورية فرَّ أبي فلحق بمكة، ثم لقي ابن عمر فقال:

---

(١) فأخرج ابن وهب في «الموطأ» كتاب المحاربة (ص١٦) بسندٍ حسنٍ عن يزيد بن أبي حبيب: أن رجلًا من الحرورية قال لعبد اللَّه بن عمر: إنك كافر.

فقال له عبد اللَّه بن عمر: كذبت.

ثم لقي ابن عباس فقال له مثل ذلك.

فقال له ابن عباس: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ حتى ختمها.

فقال الحروري: قال اللَّه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾!!.

انظر إلى تطاولهم وسوء أدبهم مع من جعلهم اللَّه تعالى أَمَنة للأمة فقال: «**وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى مَا تُوعَدُونَ**» كما في «صحيح مسلم» (٢٥٣١) !!!

قدمت الحرورية علينا ففررت منهم، ولو أدركوني لقتلوني.

فقال ابن عمر: «أفلحتَ إذًا وأنجحتَ».

فقال له: أرأيتَ إن جلست وبايعتهم إذا خشيت على نفسي الفتنة، فإن الرجل يفتنن فيما هو أيسر من هذا . . .»[1].

وكذا الروافض والصوفية يتعبدون إلى اللَّه، يعملون ويكدِّون ويكدحون، لكن قد يفسدون في الأمة فسادًا عظيمًا، ويجنون على أنفسهم وعلى أمتهم لكونهم لم يهتموا بالعلم قبل القول وقبل العمل.

وكذا جميع فرق الضلالة لم يجر على أيديهم خيرٌ، ولا فتح بهم من بلاد الكفر قرية، ولا رفع للإسلام راية.

وما زالوا يسعون في قلب نظام المسلمين، ويفرِّقون كلمة المؤمنين، ويسلُّون السيف على أهل الدين، ويسعون في الأرض مفسدين.

وأما الخوارج والشيعة فأمرهم في هذا أشهر من أن يُتَكَلَّف ذكره.

وما توصلت الباطنية إلى كيد الإسلام وإخراج الضعفاء منه إلى الكفر الأعلى السُّنة الشيعية، وأما المرجئة فكذلك . . . وقد أشار إلى نحو ذلك ابن حزم الظاهري في «الفصل في الملل والنحل» (٤/ ١٧١).

ولو استقصينا فرق الضلال لطال بنا المقام، ولخرجنا عما نحن بصدده من إيجاز يوفي بالغرض بغير إسهاب ولا تفريط.

فأيُّ عبادة أو عمل بغير علم لابد أن يؤول إلى الضلال والفساد . . . ولابد، فالعلم قبل القول والعمل.

ولذلك لما يريد الثوريون العمل للدين ولا وعي ولا علم، ما النتيجة؟!

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٨٥٨٠) بإسناد صحيح عن عبد اللَّه بن طاووس عن أبيه.

كم يخربون، وكم يفسدون، والسنة تجمع الناس وتأمرهم بلزوم جماعة المسلمين وإمامهم (السواد الأعظم)، كم يفسدون بالتشهير حتى بمن أنكروا عليهم، لكن هذا من أثر العمل بجهل، وكذا الروافض أبصرهم، وكذا فرق الضلال، سوى كثير من أهل الأهواء الذين ضلوا عن علم.

فالعلم يحث على العمل والدعوة على بصيرة وحكمة، والصبر على الأذى في ذلك، ولا يحصل شيء من ذلك إلا بالعلم أولًا.

وأدلة الحث على العلم في سردها مؤلفات.

* * *

* قوله رَحِمَهُ اللَّهُ:

«اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الأُولَى: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلًا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦]».

الشرح:

* قوله: «اعْلَمْ»: هذه كأداة تنبيه للسامع أو القارئ، والوجوب أخذ من العقوبة على عدم التعلم.

* وقول المؤلف: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ»:

لو قال: «مُسْلِمٍ» فقط، تناول النوعين: المسلم والمسلمة، إذ المسلمة تتبع المسلم كما ورد عن رسول اللَّه ﷺ: «النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ»، هذا هو الأصل، لكن قوله: «وَمُسْلِمَةٍ» هو من باب التأكيد.

وقد نص المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على المسلم مع كون الكافر أيضًا مخاطب بأصول الشريعة وفروعها كما في علم الأصول، فلم ينص المؤلف عليه لأنه -أعني: المسلم- هو المخاطب في الجملة بهذا الكلام.

المؤلف يقول هنا: «يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل».

وتقدم أنه أوجب تعلُّم مسائل أربعة فيما تقدم.

الأولى: العلم.

الثانية: العمل به.

الثالثة: الدعوة إليه.

الرابعة: الصبر على الأذى فيه.

ثم هنا ذكر ثلاث مسائل فتكون المسائل التي أوجب المؤلف تعلُّمها في الكتاب سبعة، وتكلم عليها، فكأن المؤلف لم يقصد ثلاث مسائل فقط في هذا الكتاب بمعنى أن لا تزيد المسائل عليها أو لا تنقص، لا . . فكأن العدد لا مفهوم له، واللَّه أعلم، وثلاثة مسائل أخرى تبدأ من (ص٤٣) الأولى: أن اللَّه خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا.

من علم حقيقة العلم هكذا: بذل له وقته وماله، وأنفقه فيه جهده ليل نهار.

حتى من طلب رفعةً في الدنيا فعليه بالعلم، فالعلم يرفع العبد في الدنيا إذا عمل بمقتضاه كما قال رسول اللَّه ﷺ، كما قال عمر رضي الله عنه: أما إن نبيَّكم ﷺ قد قال: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ**».

أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨١٧).

قال ذلك حينما رأى المولى بلغ الإمارة.

* **وقوله**: «**كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ**»: المسلم هو الذي ينطق بالشهادتين ويعمل بمقتضاها ولم يأتِ بناقض. هذا هو المسلم، والشرط الأول: «النطق بالشهادتين» هذا يكون لمن ولد في بلاد الكفر، أما المسلم بين المسلمين فإنه يقولها، لا يُقال له: قل لا إله إلا اللَّه حتى تكون مسلمًا، فلم يفعل المسلمون ذلك من زمن الصحابة إلى يومنا هذا.

• **ودليل أن اللَّه خلقنا: الآيات القرآنية:**

كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ٢].

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

وغير ذلك من الآيات كثير.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

أخرجه مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها، وغير ذلك من الأحاديث.

- **وعقلًا:**

لم يدَّعِ أحدٌ أنه خلق نفسه أو خلق غيره.

وقد قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

* **وقوله: «وَرَزَقَنا»:**

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [سبأ: ٢٤].

وقال: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١].

* **وقوله: «وَلَمْ يَتْرُكْنا هَمَلًا»:**

نعم لم يتركنا هملًا كما قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧].

وقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

فقوله: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾: أي: لا يؤمر ولا يُنهى.

- **وعقلًا:**

هذا يمتنع، لا يمكن أو يوجد في حكمة الباري سبحانه، بل يمتنع أن يصنع إنسان آلة ويتقنها ويهتم بها ويطورها ويصنع فيها ما يحفظها ويدل على مبتدأ الأعطال فيها ويضع فيها ما يحمي قائدها عند الاصطدام . . إلخ ويكون هذا عبثًا، وللَّه المثل الأعلى.

كيف يخلق اللَّه السموات والأرض والجبال والبحار و . . . ويسخره للإنسان ويكون هذا عبثًا لا أمر ولا نهي ولا عقوبة على المخالفة ولا . . . هذا يستحيل.

*** وهنا سؤال:**

لماذا ذكر المؤلف في المسألة الأولى أن اللَّه خلقنا ورزقنا، مع أن المسلمين والمشركين أقروا بتوحيد الربوبية كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]؟

فالجواب:

لأجل أن يذكر أنه يلزم من أن اللَّه تعالى خلقنا ورزقنا وأنه المتفرِّد بذلك أن يُفرَد بالعبادة.

فكيف يخلق ويُعبد غيره، ويرزق ويُشكر سواه.

فيلزم من إقرار الربوبية إقرار الألوهية وجعله منفردًا باستحقاقها، بل

خلق اللَّه الخلق ليعبدوه، وبالإلهية يُفردوه، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فكما أنه سبحانه له الخلق فله الأمر.

فاللَّه تعالى خلق ورزق لكي يُعبد ويُشكر سبحانه سبحانه، ومن أجل ذلك أرسل الرسل.

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

إذًا فالمؤلف ذكر مسائل في هذه الفقرة:

الأولى: إثبات أن اللَّه تعالى خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل إلينا الرسل لنعلم عبادته سبحانه.

الثانية: أن اللَّه تعالى لا يرضى أن يُشرك به شيء.

الثالثة: ضرورة طاعة رسول اللَّه ﷺ الذي أرسله اللَّه لنا، ولذلك حذَّر من مخالفته.

* **وقوله: «بَلْ أَرْسَلَ رَسُولًا، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ... إلخ»:**

بل أرسل لكل أمة رسولًا أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت.

أرسل اللَّه إلينا رسولًا شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحاكمًا بين الناس، ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، أرسله يأمرنا: هو محمد ﷺ.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥].

كذا استدل المؤلف بهذه الآية وهي صريحة.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

وقال: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥].

وإرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إنما هو لإقامة الحجة على الخلق، ولتعليمنا ما أراده اللَّه تعالى منا وما نهانا عنه، وما طلبه منا كيف نفعله، وما السبل التي نتوقى بها منا نهانا اللَّه عنه . . . إلخ.

وتعريفنا بعقوبة من أعرض عن ذكر اللَّه وأوامره.

وتعريفنا بأجر من اتبع الهدى الذي جاء به الرسول ﷺ . . . وهكذا.

بمثل قوله تعالى في جزاء الطاعة: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ

وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

ومن أعرض عن الهدى يُعرَّف بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» فقيل: ومن يأبى يا رسول اللَّه؟ قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**». أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥-١٦].

* **وقول المؤلف: «فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ»:**

هنا تفصيل:

من أطاع اللَّه دخل الجنة، ومن عصاه إذا كانت معصيته شركًا فإنه يدخل النار لا يخرج منها أبدًا، وإذا كانت معصية دون الشرك كبائر أو صغائر، فصاحبها في المشيئة، إن شاء اللَّه غفر له، وإن شاء عذبه، وإن عذَّبه فإنه يُنقى ثم يدخل الجنة بعد أن يُنقى من الذنوب.

ويدل على ذلك حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَزْنُوا،**

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ، وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ».

أخرجه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

وفي «صحيح مسلم» (١٨٥) قول النبي ﷺ: **«أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا، فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ، فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ...»** الحديث.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«**الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّه لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]».

الشرح:

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ المسألة الثانية مما يجب على المسلم والمسلمة، وهي إخلاص العمل للَّه وعدم الشرك به سبحانه، وهذا كثر التحذير منه في الشريعة.

وقد قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧].

وقال كل نبيٍّ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ﴾.

ومفهوم المخالفة من الآية: إثبات صفة الرضى للَّه، فإنه يرضى لنا الإيمان والطاعة رضًا شرعيًّا.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ**» أخرجه البخاري (١٢٩) عن معاذ بن جبل.

وفي «صحيح مسلم» (٩٣) عن جابر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ**».

وفي «صحيح مسلم» (٢٩٨٥) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**».

فاللَّه تعالى يبغض الشرك وأهله ولا يرضى ذلك من عباده، بل هو قبيح جدًّا في العقل والشرع، كيف يخلق اللَّه تعالى ويرزق ويُنعم ويُكرم و... ويُعبد غيره ويُشكر سواه.

وفي «مسند الشاميين» للطبراني (٩٧٤)، و«شعب الإيمان» (٤٢٤٣) عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: إِنِّي وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ فِي نَبَإٍ عَظِيمٍ: أَخْلُقُ وَيُعْبَدُ غَيْرِي، وأَرْزُقُ وَيُشْكَرُ سِوَايَ**»!!.

وإن كان إسناده ضعيفًا لا يصح.

لكن قد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وأيُّ قُبْح في الشرك وأيُّ ظلم فيه، كما قال العبد الصالح لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وقد أخرج الترمذي (٢٨٦٣) بإسناد صحيح عن الحارث الأشعري أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا... فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَامْتَلَأَ**

الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ، أُولَهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِنَّ مَثَل مَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ فَقَالَ: هَذِهِ دَارِي وَهَذَا عَمَلِي، اعْمَلْ وَأَدِّ إِلَيَّ، فَكَانَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ...» الحديث.

فقبيح قبيح الشرك، وكم أمر اللَّه تعالى بعبادته ونهى عن الشرك في نص واحد، كما قال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وكم للإخلاص من فوائد، وكم يكفِّر من خطايا . . . إلخ

وعلى النقيض من ذلك: كم للشرك من رزايا . . .

فاللهم جنِّبنا وبنينا وذوينا أن نعبد الأصنام أو أن نشرك بك ونحن نعلم، ونستغفرك لما لا نعلم . . .

ووجه الاستدلال بالآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

فلا يُعبد إلا هو، كما أنه منفرد بالربوبية: الخلق والرزق والتدبير، فكذلك لا يُعبد إلا هو سبحانه، فمن أشرك مع اللَّه أحدًا تركه وشِرْكَه، والشرك محبطٌ للعمل كلِّه.

- **والشرك باللَّه أقسام:**

* **شرك في الربوبية:** وهو أن يُقال بأن هناك من يدبِّر الكون معه أو يرزق أو يخلق كالأقطاب أو بعض الأموات . . إلخ.

* **وشرك في الألوهية:** ويكون بصرف العبادة أو بعضها لغير اللَّه سبحانه وتعالى.

* **وشرك في الأسماء والصفات**: كالقول بالتمثيل (تمثيل اللَّه بخلقه) أو التشبيه . . .

لكن المؤلف هنا يقصد النهي عن الشرك في العبادة، لا ندعو غير اللَّه، لا دعاء مسألة، ولا دعاء عبادة (ثناء).

ودعاء المسألة هو الطلب منه سبحانه.

● **وقوله: «لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»:**

قَوْله: «لَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ»:

من جنس الملائكة الذين خلقوا من نور، كما قال رسول اللَّه ﷺ، واصطفاهم اللَّه، ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . . . إلخ، وتحدثنا عنهم في غير هذا الموطن، فلا يشرك العبد بالملائكة ولا يصرف شيئًا منها هو للَّه تعالى لآحاد الملائكة أو لجميعهم.

وقوله: «وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ»:

النبي: هو رجل من بني آدم أوحى اللَّه تعالى إليه بشرعٍ وأمره بتبليغه، أو هو ينبئ الناس بشريعة مَنْ قبله، مثل: صالح، وشعيب، وهود الذين لم يأتوا بشريعة جديدة، أو كالأنبياء الذين كانوا بين عيسى وموسى عليهما السلام، وهم المعنيون بقوله ﷺ: «**كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ...**» الحديث، أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

ومن الأدلة على أن النبيَّ مرسلٌ مثل الرسول: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢].

فالنبي مرسلٌ ومأمور بالتبليغ.

* * *

وقال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الثَّالِثَةُ: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللَّهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]».

الشرح:

هذه مسألة الولاء والبراء، وهي من أوثق عرى الإيمان.

وقد جاءت فيه نصوص كثيرة منها الآية التي ذكرها المؤلف، وحاصل معناها: أنك تحب المؤمن وتواليه، وتعادي من عادى اللَّه وحادَّه ولا توالِيه؛ بل تبغضه، والبراء: هو البغض في اللَّه، والمعاداة فيه..

فما معنى أن الشخص يدعي الإيمان باللَّه ثم هو يوالي من عاداه اللَّه ويحابيه أو يعادي وليًّا للَّه؟!

والموالاة: بمعنى المحبة والمودة والمصادقة والنصرة والطاعة والتشبه.

ومن النصوص المحذِّرة من الموالاة للكفار أيضًا:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ

أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ومثل الآية التي ذكرها المؤلف قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٣-٢٤].

وسبحان اللَّه كيف يوادُّهم الإنسان وهم كما قال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

فالمنهج في هذا هو ما سنَّه اللَّه لنا في فعل إبراهيم عليه السلام يعزُّ المؤمن به.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

أما قول إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]، فكما قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

واعلم -علمني اللَّه وإياك- أن موالاة من حاد اللَّه ورسوله تدل على أن ما في قلب الإنسان من الإيمان باللَّه ورسوله ضعيف؛ لأنه ليس من العقل أن يحب الإنسان شيئًا هو عدو لمحبوبه.

وموالاة الكفار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضلال، وموادتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودتهم، فتجده يوادهم أي يطلب ودَّهم بكل طريق.

وهذا لاشك أنه ينافي الإيمان كله أو كماله[1].

فالواجب على المؤمن معاداة من حادَّ اللَّه ورسوله ولو كان أقرب قريب إليه، ويبغضه والبعد عنه، ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحق، هذا بابٌ آخر[2].

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف ورد لها سبب نزول لا يصح، أخرجه الطبراني (١/ ١٤٥ رقم ٣٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٩٦)، والبيهقي في «الكبرى» (٩/ ٤٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٠١) وغيرهم من طريق ابن شوذب قال: جعل والد أبي عبيدة يتصدى لأبي عبيدة يوم بدر، فجعل أبو عبيدة يحيد عنه، فلما أكثر قصده أبو عبيدة فقتله، فأنزل اللَّه ﷻ فيه هذه الآية حين قتل أباه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ﴾ . . . الآية.

---

(١) على حسب الباعث لذلك كما سيأتي.

(٢) بتصرف من شرح الشيخ العثيمين لثلاثة الأصول (ص٢٨).

والمعنى الإجمالي ذكرناه في غضون الكلام على الموالاة، واللَّه الموفق.

وموالاة المسلمين للكفار[1] إذا كانت لأجل دينهم، وعقيدتهم، ونصرة لهم، ومحبة في عقيدتهم الفاسدة؛ فهذا كفرٌ باللَّه العظيم، ومُوَالِيهم من المسلمين كافر -كفرًا أكبر مخرجًا من الملة- لا يُختلف في هذا -فيما نعلم-.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٨-١٣٩].

---

(١) وأصل الموالاة: هي المحبة، كما أن أصل المعاداة البُغض، فإن التحاب يُوجب التقارب والاتفاق، والتباغض يوجب التباعد والاختلاف. وقد قيل: المولى من الولي. وهو القرب، وهذا يلي هذا، أي: يقرب منه. والعدو من العدواء وهو البعد، ومنه العدوة. والشيء إذا ولي الشيء ودنا منه وقرب إليه اتصل به، كما أنه إذا عَدَى عنه، ونأى عنه، وبعُد منه، كان ماضيًا عنه.

فأولياء اللَّه ضد أعدائه، يقربهم منه، ويدنيهم إليه، ويتولاهم، ويتولونه، ويحبهم، ويرحمهم، ويكون عليهم منه صلاة، وأعداؤه يبعدهم، ويلعنهم، وهو إبعاد منه ومن رحمته، ويبغضهم، ويغضب عليهم، وهذا شأن المتوالين والمتعادين.

قاله شيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٣٨٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

وأخرج مسلمٌ (٢١٥) عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسولَ اللَّه ﷺ جِهَارًا غيرَ سِرٍّ يقول: «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي (يعني: فُلانًا) لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّي اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**».

وقد أخرج الطبراني في «الكبير» (١٠/ ١٧١) رقم (١٠٣٥٧) بإسنادٍ يُحسَّن -إن شاء اللَّه- عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**يَا ابْنَ مَسْعُودٍ**» قلتُ: لَبَّيْكَ يا رسولَ اللَّه -ثلاثًا- قال: «**هَلْ تَدْرُونَ أَيَّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟**» قلتُ: اللَّه ورسولُه أعلم، قال: «**الوِلَايَةُ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّهِ**».

أما إذا كانت الموالاة للكفار بسبب رحم، أو مصلح دنيوية، أو نحو ذلك؛ فهي حرامٌ وكبيرةٌ من كبائر الذنوب، وليست رِدَّةً عن دين الإسلام؛ لأن الموالاة هنا ليست موالاة تامة[1].

---

(١) ولا يفهم من هذا أننا نتهاون في تجريم عقيدة الكفار من يهود ونصارى وغيرهم، فإن الإجماع انعقد على كفر من لم يكفرهم، ذكر هذا الإجماع القاضي عياض في «الشفاء» تحت فصل في القول في إكفار المتأولين، وأضاف قائلًا: «وكل من فارق دين=

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩].

فقوله في آخر الآية: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ الظلم هنا بحسب التولِّي، فإن كان توليًّا تامًّا كان كفرًا مخرجًا عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظٌ، وما هو دونه، كما قال الشيخ السعدي في تفسير الآية.

فإن التولِّيَ يوجب الانتقال إلى دينهم، والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا حتى يكون العبد منهم، حتى يتنزل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فها قد نهى اللَّه ﷻ المؤمنين أن يُلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجةً من دون المؤمنين، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين، فيُظهرون لهم اللُّطف، ويُخالفونهم في الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ﴾، ومعلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لمَّا نهاهم عن موالاة الكفار، اقتضى ذلك معاداتَهم، والبراءةَ منهم، ومجاهرتَهم بالعدوان في كل

= المسلمين أو وقف في تكفيرهم أو شك، قال القاضي أبو بكر: لأن التوقيف والإجماع اتفقا على كفرهم، فمن وقف في ذلك فقد كذَّب النص والتوقيف، أو شك فيه، والتكذيب أو الشك فيه لا يقع إلا من كافر». اهـ

حال، إلا إذا خافوا من شرِّهم، فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاةً لهم، كما قال ابن القيم[1].

وقصة حاطب بن أبي بلتعة دليلٌ على هذا، فإنه والاهم لأجل أرحامه، ونص على اطمئنان قلبه بالإيمان وبُغض الكفر، كما في سياق حديثه، والنبي ﷺ لم يكفِّره، ولم يأمره بالنطق بالشهادتين لكونه كَفَر!

ومالك بن الدُّخْشُن كان ولاؤه ونُصحه للمنافقين واتُّهم بالنفاق، ودافع النبيُّ ﷺ عنه[2]، ولم يكفِّره بموالاته فمن يكفر بالموالاة مطلقًا يلزمه أن يكفِّر مالك بن الدُّخْشُن رضي الله عنه، ومن كفَّره كان مستدركًا على رسول اللَّه ﷺ مبتغيًا للإثم والعدوان، وقد قال رسول اللَّه ﷺ عقب حديثه: «**فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**»، وهي تزكية له رضي الله عنه، وفي رواية البخاري (٥٤٠١) قال ﷺ: «**أَلَا تَرَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ**».

ثم إن كفَّرنا المسلم بموالاته للكافر مطلقًا، يلزمنا أن نكفِّر المسلم بمعاداته للمؤمن مطلقًا، ولا قائل يقول بهذا.

والحافظ ابن كثير لما ذكر الآيات الدالة على التكفير بالموالاة، قال بعد قصة حاطب:

«ولهذا قَبِلَ رسولُ اللَّه ﷺ عُذْرَ حاطب، لمَّا ذكر أنه فعل هذا مصانعة

---

(١) في «بدائع الفوائد» (٣/ ٥٧٥) ط. نزار الباز.

(٢) وحديث في «صحيح البخاري» (٤٥٢)، ومسلم (٣٣)، وفي حديثه: أن الصحابة علَّلوا رميه بالنفاق بقولهم: «فإنا نرى وجهه ونصيحته إلى المنافقين»، فحديثه هذا حجة لمن يفصل بين الموالاة مع حبٍّ لدين الكفار، وبين الموالاة لرحم أو لدنيا، فيكفّر الأول، أما الثاني فليس بكافر، وإن كان مرتكبًا لكبيرة.

لقريش لأجل ما كان له عندهم من الأموال والأولاد»[١].

وظاهر كلام شيخ الإسلام:

أنه لم يكفِّر حاطب بن أبي بلتعة بما صدر منه؛ لأنه لم يصدُر عن شكٍّ في الدين. وإنما صَدَر عن شهوة وعَجَلة، وهي معصية، وقال: «يجب على صاحبها أن يتوب»[٢].

ويؤيده: أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١] نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، لمَّا كاتَبَ كفار قريش، وهو داخل في خطاب الذين آمنوا؛ لأن ذلك كان من سبب نزول الآية[٣]، فإنه رضي الله عنه لما ذكر سبب مكاتبته لقومه، قال ﷺ: «**قَدْ صَدَقَكُمْ**».

قال شيخ الإسلام: «وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة، فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل اللَّه فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]»[٤]. وفي هذا ردٌّ على أسامة بن لادن -الذي أثنى عليه شيوخ الضلالة- والذي كفَّر الحكام بموالاتهم للكفار، واستدل بعموم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤٧).

(٢) راجع: «الصارم المسلول على شاتم الرسول» (١/ ٢٠٢) ط. دار ابن حزم. وقد قال ابن القيم رحمه الله في «الطرق الحكمية» (ص٩٤) بجواز قتل الجاسوس المسلم إذا اقتضت المصلحة قتله، وهذا قول مالك وبعض أصحاب أحمد، واختاره ابن عقيل». اهـ. فلو اعتبر الجاسوس المسلم كافرًا لقتل ردة على أي حال بلا نزاع، فهنا صار كلامه موافقًا لكلام شيخه -رحمهما اللَّه-.

(٣) كما في «صحيح البخاري» (٣٠٠٧)، ومسلم «٢٤٩٤».

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٥٢٢).

مع دلالة الآية على أنه دخل في عموم الموالاة لهم، ولم يكفر بذلك، ولم يُهدر دمه؛ لأن الموالاة هنا لم تكن في الدين.

وهو استدلال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه سُئل عن هذه المسألة، فقال: «ليس الدلالة على عورة مسلم بكُفْرٍ بَيِّن»[1].

والحجة فيه:

السنة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب، ثم ذكر حديث حاطب[2].

فإن النبي ﷺ صدَّقه فيما قال، ولم يَهْدِر دمه، ولو كان كافرًا لحبط عمله بردَّته، ولأمرَ ﷺ أن يُقتل ردةً، أو أمره بالشهادتين.

وأيضًا:

من فسَّر ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ بالإطلاق دون أن يفصل بين الموالاة بحبِّ دينهم ونصرتهم، وبين أن تكون من المودة والموالاة على الدنيا، فإنه يلزمه أيضًا أن يحمل حديث: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[3] على

---

(١) حكاه عنه ابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٨٣) ط. دار طيبة، وهو في «الأم» (٤/ ٢٤٩) ط. دار المعرفة قال: «ليس الدلالة على عورة مسلم ولا تأييد كافر، بأن يحذر المسلمين يريدون منه غرة ليحذرها أو يتقدم في نكاية المسلمين بكفر بيِّن، فقيل للشافعي: قلتَ هذا خبرًا أم قياسًا؟ قال: قلته بما لا يسع مسلم عَلِمه عندي أن يخالفه بالسنة المنصوصة بعد الاستدلال بالكتاب، فقيل للشافعي: فاذكر، فذكر السنة فيه . . . وأسند حديث حاطبٍ دليلًا على ما ذهب إليه.

(٢) وحكى ابن المنذر في «الأوسط» (١١/ ٢٨٥) عن الشافعي، قال: «فإذا كان هذا من الرجل ذي الهيئة بجهالته، كما كان هذا من حاطب بجهالة، وكان غيرَ متهم، أحببت أن يتجافى عنه، وإن كان من غير ذي الهيئة، كان للإمام تعزيره، واللَّه أعلم».

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٣٣)، وغيره بإسنادٍ جوَّده ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٥/ ٣٣١) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وله شواهد.

وصحَّح إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» برقم (٨٥١) ط. مكتبة طبرية.

عمومه فيكفر من تشبَّه بهم في ثياب، أو طباع، أو نحو ذلك، وهو لا يقول بذلك، فمعلومٌ أن مطلق التشبه بالكفار ليس كفرًا في كل حال، فقد يكون التشبُّه بهم كفرًا، وقد يكون كبيرة دون الكفر.

وكذلك أهلُ الإجرام، فلا شكَّ أن الضحك والاستهزاء برجل مسلم لا يكون كفرًا مطلقًا.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩- ٣٦]. حكم عليهم بالكفر، ولا شك أن معتقد أهل السنة لا يحكم بالكفر على المستهزئ الضاحك من مسلم بعينه إذا لم يكن الاستهزاء من أجل الدين الذي هو عليه، وإلا فقد ضحك الصحابة من دقَّة ساق ابن مسعود رضي الله عنه وما عنَّفهم رسول اللَّه ﷺ؛ لأنه ما كان استهزاءً، وهذا عند أحمد (٣٩٩١) بسندٍ حسن، بل لا يكون كفرًا قتلُه أو مقاتلتُه، كما بينا في غير هذا الموطن في الحكم على المُعَيَّنين.

*** أما قول الشيخ أحمد شاكر في كتابه «كلمة الحق» (ص١٣٠):**

«التعاونُ مع الإنجليز بأيِّ نوع من أنواعِ التعاونِ -قلَّ أو كثُرَ- فهو الردةُ الجامحةُ، والكُفر الصراحُ، لا يُقبَل فيه اعتذارٌ، ولا ينفعُ معه تأوُّل، ولا ينجي من حُكمه عصبيةٌ حمقاء، ولا سياسةٌ خرقاء، ولا مجاملة هي النفاق، سواء أكان ذلك من أفرادٍ أو من جماعاتٍ وحكوماتٍ، أو زعماءٍ، كلهم في الكفر والردةِ سواء، إلا من جهل وأخطأ . . .».

وقول الشيخ ابن باز:

«أجمع علماء الإسلام على أن من ظاهرَ الكفارَ على المسلمين

وساعدَهم عليهم بأيِّ نوع من أنواع المساعدة فهو كافرٌ مثلهم»[١].

فهو محمولٌ على تكفير الفاعلِ إذا لم يكنْ له عذرٌ من جهل أو تأويل أو نحو ذلك، كما كان حاطب معذورًا عند رسول اللَّه ﷺ، ولتنزيله على المُعَيَّن شروط، وانتفاء موانع، فتقامُ الحجةُ على المعيَّن لاسيما إذا كان حاكمًا؛ لأن الحكم بكفره تترتب عليه أمور عظيمة، فكلام الشيخين (ابن باز وأحمد شاكر) عام لا ينزل على الأفراد فضلًا عن الحكَّام إلا بشروط، وكلام الشيخ أحمد شاكر له سياق يُراجع ليُفهم الحال التي قيل فيها هذا الكلام من (ص١٢٦ وما بعدها)، فربما كان الحالُ غير الحالِ.

وأما القائل بأن قول رسول اللَّه ﷺ لحاطب خاص به لمكانه، وأنه لم يُقَمْ عليه الحد لأجل شهوده غزوة بدر، فلا دليل، والخصوصيات لا تثبت إلا بدليل، وهو كقول من قال: إن عدم إقامة الحدِّ خاصٌّ بأهل بدر.

فهذا قولٌ بعيدٌ مصادمٌ، فقد أقام النبي ﷺ الحدَّ على حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة في حادثة الإفك، وأقام عمر رضي الله عنه حدَّ الشراب على قدامة بن مظعون، وهم ممن شهدوا بدرًا.

● **وقد لخص الشيخ الفوزان حُكمَ الموالاة للكفار على ثلاثة أقسام - وهو تفصيل رائق -، فقال:**

«**القسم الأول**: مظاهرتهم، ومعاونتهم على المسلمين، مع محبة ما هم عليه من الكفر، والشرك، والضلال، فهذا القسمُ لا شكَّ أنه كفرٌ أكبر مخرج من الملة، فمن ظاهرَهم، وأعانهم، وساعدهم على المسلمين، مع محبة دينهم، وما هم عليه، والرِّضى عنهم، وهو مختارٌ غيرُ مُكرَهٍ، فإنه

(١) كذا قال في «مجموع الفتاوى» له (١/ ٢٦٩).

يكون كفرًا مخرجًا من الملة، على ظاهر قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾.

القسم الثاني: أن يُعاونهم على المسلمين لا مختارًا، بل يُكرهونه على ذلك بسبب إقامته بينهم، فهذا عليه وعيد، ويُخشى عليه الكفر المخرج من الملة -أي: إن استجاب-.

القسم الثالث: من يُعين الكفار على المسلمين وهو مختارٌ غير مُكره، مع بُغضه لدين الكفار، وعدم الرضا عنه، فهذا لا شك أنه فاعلٌ لكبيرة من كبائر الذنوب، ويُخشى عليه من الكفر»[1].

والحاصل: أن مَنْ يوادُّ الكفارَ، ويواليهم، فقد ارتكب محرمًا عظيمًا، ويُخشى عليه، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فلا يجوز أن يقدِّم الودَّ لهم، لا قليلًا، ولا كثيرًا، واللَّه الموفق.

واعلم أخي الكريم -بصَّرك اللَّه بالحق، والخير، والهدى، وسدَّد خُطاك فيه-:

أن خطورة موالاة الكفار تبرز في أن ضررها على المسلمين كافة، أعظم من خطر من يكفر في نفسه فقط، ذلك أن الإضرار بالمسلمين يكمُن في تغيير الاعتقاد، ويفعله من يظن سلامة الاعتقاد، وهو كاذبٌ عند اللَّه تعالى، ورسوله ﷺ، والمؤمنين في هذه الدعوى والظن، ومعلوم أن المفسدة في هذا أعظم[2].

---

(١) «دروس في شرح نواقض الإسلام» (١٥٩-١٦٠) نقلًا عن: «مناط الكفر بموالاة الكفار» (ص٢٨).

(٢) انظر: «الصارم المسلول» (١/ ٣٧٧) ط. دار ابن حزم.

● ولموالاة الكفار صورٌ:

منها: الرضا بكفرهم، وعدم تكفيرهم، أو الشك في كفرهم، أو تصحيح مذاهبهم الهدَّامة، ولا نزاع في أن من يحب الكافر لأجل كفره هو كافر مثله.

ومنها: تولِّيهم توليًّا عامًّا، واتخاذهم أعوانًا، وأنصارًا، وأولياء، أو الدخول في دينهم، واللَّه ﷻ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، ويقول: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨١].

فلا يجتمع كمالُ الإيمان مع اتخاذهم أولياء.

ومنها: الإيمان ببعض ما هم عليه، والتحاكم إليه من دون كتاب اللَّه، واللَّه تعالى يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

ومنها: الركون إليهم، وهو من السكون إليهم، والرِّضا بهم، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن ذلك: مُداهنتهم، ومُجاملتهم على حساب الدين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ثم هم يتمنون ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۖ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومنها: طاعتهم فيما يأمرون ويُشيرون، واللَّه تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

ومنها: تولِّيهم أمرًا من أمور المسلمين، وحسبُك بهذا فسادًا.

إلى غير ذلك من المظاهر المعروفة المخالفة لآي القرآن، وأحاديث النبي العدنان ﷺ، وأفعالِ خلفائه الراشدين رضي اللَّه عنهم أجمعين.

والخلاصة:

أنَّ البُغض في اللَّه واجبٌ، ولو كان مع أقرب الناس، مادام الرجل يحادُّ اللَّه ورسوله، استدلالًا بالآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾ الآية.

يتعاملون معهم لا بأس، ففرقٌ بين التعامل معهم والمودة.

وكذلك أهل الأهواء والبدع يُبغضون ويُحادون ويهجرون استدلالًا بهذه الآية: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ..﴾.

لكن هجر المبتدع والتعامل معه له فقه، التعامل معه بغير فقه يضر ولا يصلح، فلهجر المبتدع حالتان:

الأولى: إذا كان الهجر يحقِّق مصلحة يُهجر، وأما إذا كان يُحقق مفسدة؛ كأن يكون أهل البدع كثيرٌ ولهم شوكةٌ.

إذا كان لا يتحقق من الهجر مصلحة فلا يُهجر والحالة هذه.

لأن النبيَّ ﷺ استأذن رجلٌ عليه فقال رسول اللَّه ﷺ: «**ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ**

أَخُو الْعَشِيرَةِ، أو: ابْنُ الْعَشِيرَةِ»، فلمَّا جاء ألَان النبيُّ ﷺ له الكلام، فسألته عائشة: يا رسولَ اللَّه! قلتَ ما قلتَ، ولما جاء أَلَنْتَ له الكلام، قال: «**يَا عَائِشَةَ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**»[1].

خشي هنا من الهجر مفسدة أكبر، فعلَّمنا ﷺ المداراة.

فالهجر هنا يحقِّق مفسدة لا مصلحة، مع أن الأصل هو هجر المبتدع وزجره... ثَمَّ إجماع على هذا.

وهذه المصلحة المرجوة مثل رواية بعض أصحاب «الصحيحين» عن بعض المبتدعة فيما لا يتعلق ببدعته[2]، أي: لحاجتهم إلى ما عندهم فإذا كنت في بلدة فيها البدع مستفحلة وسوادهم صوفية، أو أشعرية، أو خوارج، أو...

وأعلنت -وأنت وحدك- النكير والهجر والزجر والتشهير بهم، من باب قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ..﴾، فإنك قد لا تسلم في حياتك فضلًا عن أن تنشر الدعوة إلى السنة، وقد تناولت هذا بتوسُّع في كتابي «ذم أصحاب الأهواء والبدع وفقه التعامل معهم».

وقال إسحاق بن منصور: قلتُ لأبي عبد اللَّه: مَنْ قال: القرآن

---

(١) وهذا في «الصحيحين»: البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٢) وراجع لذلك كتب المصطلح، وأخصُّ بالذكر «تدريب الراوي» في هذا، مع أن محمود بن غيلان قال لأحمد بن حنبل: إن يحيى بن يحيى النيسابوري قال: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر لا يُكلَّم ولا يُجالس. فقال أحمد: ثبَّت اللَّه قوله». وقال هو مرة: «من قال: القرآن مخلوق؛ فإن مرض فلا تَعُدْهُ». وقال: «لا يُكلَّمون ولا يُجالَسون».. ومع ذلك يُنصح في الهجر بالفقه فيه فرحمه اللَّه تعالى.

مخلوق؟ قال: ألحق به كلَّ بلية، قال: كافر؟ قال: إي واللَّه، قلت: فنظهر لهم العداوة أو نجانبهم؟ قال: أهل خراسان لا يقوون بهم»[1].

وقال الشيخ أحمد النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه على «لمعة الاعتقاد» (ص١٠٧):

«هجر المبتدع لا يكون واجبًا حتميًّا، وإنما يتبع فيه المصلحة، فإن كانت المصلحة في الهجر فُعل، وإن لم تكن في الهجر مصلحة فلا يُفعل، ويُعرض عن المبتدع، بمعنى: أن أهل السنة لا ينبسطون إليه، ولا يجالسونه، ولا يضاحكونه، ولا يؤاكلونه، ولا يشاربونه، فعلى الإنسان أن يكون مباينًا ومحايدًا عن أهل البدع».

والمقصود: أن الولاء والبراء بابٌ عظيم.

لابد من تحقيقه.

ويا له من أجر عظيم في الآية لمن حقَّق الولاء والبراء.

ذكره اللَّه تعالى في الآية، يكتب اللَّه في قلوبهم الإيمان، ويؤيدهم بروح منه، ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ورضي اللَّه عنهم، وتسمية اللَّه لهم بحزب اللَّه، ووعدهم بالفلاح، كلُّ هذا لكونهم حقَّقوا الموالاة والمعاداة.

نسأل اللَّه تعالى أن يحقق لنا ذلك بفضله وكرمه.

* * *

(١) أخرجه الخلال في «السنة» (٢٠٩٢) بإسنادٍ صحيحٍ.

● **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:**

«اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ- أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ. وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. **وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ».**

الشرح:

● **قوله: «اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللَّهُ لِطَاعَتِهِ-»:**

هذا دعاء للمخاطب لفتح قلبه لقبول ما يُلقى عليه، كما تقدم قبل في أول الكتاب أنه قال: «اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللَّهُ- أَنَّهُ يَجِبُ..» وتم التعليق عليها هناك.

● **ومعنى قوله: «أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ»:**

بيَّن المؤلف غرضه هنا، وهو اتباع ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ذلك أن اللَّه تعالى كذا سماها، فقال لرسوله ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣].

ومعنى: ﴿حَنِيفًا ۖ﴾: أي: مائلًا عن الشرك.

وهي كقوله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الحج: ٣١].

● **ثم عرَّف المؤلف هذه الملة فقال:**

«أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»:

العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه اللَّه تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج،

وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب اللَّه ورسوله، وخشية اللَّه، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة للَّه.

كذا قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ١٤٩-١٥٠).

ومن الأدلة التي تأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفًا أيضًا غير ما أورده المؤلف:

قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

وقال مثنيًا عليه ليُتَّبع: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠].

وقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [النحل: ١٢٣].

فهذه أوامر أمر اللَّه بها كلها دائرة على وجوب اتباع ملة إبراهيم عليه السلام، والملة هي الشريعة أو النِّحْلة.

- **لكن لماذا أمر اللَّه تعالى باتباع ملة إبراهيم بالذات؟**

والجواب -واللَّه أعلم-:

لكونه إمامًا، ولكون أهل الشرك من أهل مكة يدَّعون أنهم على ملة

إبراهيم عليه السلام، فأمرهم اللَّه باتباع ملَّته حقًّا إن كانوا صادقين.

وكذلك فيه ردٌّ على اليهود والنصارى الذين يدَّعون أن إبراهيم عليه السلام كان يهوديًّا أو نصرانيًّا، فقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ [آل عمران: ٦٧].

واعلم - بارك اللَّه فيك- أن الجميع ينتسب إلى ملة إبراهيم عليه السلام، ولكن هيهات فليس كل من ادعى دعوى كان صادقًا في دعواه، فها هو فرعون ينادي في قومه وهو يحكي لهم عن موسى عليه السلام فيقول: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦].

كأن فرعونَ كان له دين يخشى أن يُبدَّل، وماذا كان دينُه؟!

دينه: استخفاف قومه ليطيعوه!

دينه: أن يُتخذ إلهًا لكونه ملك مصر والأنهار تجري من تحته!

دينه: أن يستضعف طائفة من بني إسرائيل يُذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم!

وهي كقول فرعون هذه الأمة أبي جهل يوم أن تبع رسول اللَّه وهو يقول للناس: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّه تُفْلِحُوا**»، وأبو جهل يُحثي التراب على رأسه ويقول: «لا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا عَنْ دِينِكُمْ».

أخرجه أحمد (٤/ ٦٣) بسندٍ صحيح، كأنه كان لأبي جهل وعباد الأصنام دين!!

فليس كل من ادَّعى شيئًا يصدق فيه، كدعوى أهل البدع من الخوارج والحزبيين والصوفية أنهم على السنة ويتبعون منهج السلف.

• **وقوله: «مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ»:**

أي: خالصًا لوجه اللَّه لا لأحدٍ من الخلق.

• **قول المؤلف: «وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللَّهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا»:**

أي: أمر اللَّه جميع الناس بالتوحيد الخالص، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

• **ثم استدل المؤلف بقوله تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال: «وَمَعْنَى «يَعْبُدُونِ»: يُوَحِّدُونِ»:

كذا فسَّرها البخاري في «صحيحه» تفسير سورة الذاريات، ونص قوله: «وما خلقت أهل السعادة من الفريقين إلا ليوحِّدون».

• **وفي الآية وجوه تفسير أخرى للعلماء:**

فذكر بعضهم: وما خلقت الجن والإنس إلا ليذعنوا لي بالعبادة؛ أي: إلا ليقرُّوا لي بعبوديتهم لي طوعًا أو كرهًا.

وثَمَّ أقوالٌ أخرى كلها تدور في هذه الفلك: عبادة اللَّه وحده لا شريك له مخلصين له الدين.

وهذه الآية لم يذكر فيها الملائكة مع أن اللَّه تعالى خلقهم أيضًا لعبادته لأن الخطاب كان لمحمد رسول اللَّه ﷺ، وهو ما أرسل إلى الملائكة وإنما أُرسل إلى الإنس والجن.

والعبادة التي خلق الإنس والجن من أجلها هي مثل المذكورة في غضون كلام شيخ الإسلام ابن تيمية المتقدم ونحوها.

ولا معارضة ولا اختلاف بين قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبين قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات: ١٣]؛ لأنه جعلهم شعوبًا ليتعارفوا، وأما خلقهم فإنما هو للعبادة، واللَّه أعلم.

وهذه الآية فيها فوائد:

منها: بيان الحكمة التي من أجلها خلق اللَّه الثقلين.

وهي العبادة: خوف، ورجاء، ومحبة، . . . إلخ.

ومنها: الإيمان بوجود الجن، لقوله تعالى: ﴿. . . ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾.

ومنها: أن الجن مكلَّفون بالعبادة، وأن دعوة محمد ﷺ بلغتهم بضميمة قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١-٢].

ومنها: أن منهم من آمن -أعني الجن-.

وفي «صحيح البخاري» (٤٩٢١) قصة لهم، ماذا فعلوا لما حيل بينهم وبين خبر السماء.

والجن يراهم الناس متى تشكَّلوا كما في حديث أبي هريرة في آية الكرسي، أما إذا كانوا على حقيقتهم من غير تشكُّل، فكما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومن الفوائد التي في الآية: النهي عن الشرك، لأن اللَّه ما خلق الناس إلا للعبادة، فهذا تحذير ضمني من الشرك، ولذلك قال المؤلف في الفقرة القادمة.

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٥]».

الشرح:

نعم، أعظم الأوامر التي أمر اللَّه بها هي التوحيد، وهو إفراد اللَّه بالعبادة، فقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥].

والتوحيد: إفراد اللَّه بالعبادة له وحده لا شريك له.

● **وأقسام التوحيد ثلاثة:**

أولًا: توحيد الربوبية، وهو إفراد اللَّه بالخلق والرزق والملك والتدبير.

دليله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [فاطر: ٣].

وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وتوحيد الحاكمية -أن يكون الحكم للَّه- داخل فيه، ليس هو قسم وحده؛ لأنه إفراد اللَّه بالحكم، أن يكون الحكم للَّه هذا داخل في توحيد الربوبية.

الثاني: توحيد الألوهية، وهو إفراد اللَّه بالعبادة، فلا يُعبد إلا إياه، ولا يُعبد إلا بما أمر وأراد، بما ذكر في كتابه، أو بما ذكر نبيه ﷺ، وعلى

ذلك أدلة لا يأتي عليها الحصر، منها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٤].

الثالث: توحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات ما أثبته اللَّه لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من غير تمثيل ولا تعطيل.

ودليل هذا التقسيم: الاستقراء.

وثَمَّ آيات جمعت أقسام التوحيد الثلاثة كقوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

فقوله: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ توحيد ربوبية.

وقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ﴾ توحيد ألوهية.

وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ توحيد الأسماء والصفات.

وراجع مزيدًا لهذا في كتابنا «لمع الأدلة في ذكر بيان عقيدة أهل السنة» (١/ ١٩٨) وما بعدها.

ومن الأدلة على أن أعظم ما أمر اللَّه به هو التوحيد، وأعظم ما نهى عنه اللَّه هو الشرك: أن النبي ﷺ دعى في أول ما دعا إلى التوحيد ونبذ الشرك، ومعلومٌ أنه في الدعوة يُبدأ بالأهم والأعظم.

فقد أخرج الإمام أحمد (٤/ ٦٣) وغيره بإسناد صحيح عن أشعث بن أبي الشعثاء قال: حدثني شيخ من بني مالك بن كنانة قال: رأيت رسول اللَّه ﷺ بسوق ذي المجاز يتخللها يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، تُفْلِحُوا**»، قال: وأبو جهل يُحثي عليه التراب ويقول: يا أيها الناس لا يغرنَّكم هذا عن دينكم، فإنما يريد لتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى، قال: وما يلتفت إليه رسول اللَّه ﷺ... الحديث.

وفي «صحيح مسلم» (٨٣٢) عن عمرو بن عبسة قال: كنتُ وأنا في الجاهلية أظنُّ أنَّ الناسَ على ضلالةٍ وأنَّهم ليسُوا على شيءٍ وهم يعبدون الأوثانَ، فسمعتُ برَجُلٍ بمَكَةَ يُخبر أخبارًا، فقَعَدْتُ على راحلتي فقَدِمْتُ عليه، فإذا رَسُولُ اللَّه ﷺ مُسْتَخْفِيًا جُرَءَاءُ عليه قَوْمُه، فَتَلَطَّفْتُ حتى دخلتُ عليه بمَكَّةَ فقلتُ له: ما أنت؟ قال: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فقلتُ: وما نَبِيٌّ؟ قال: «**أَرْسَلَنِي اللَّهُ**»، فقلتُ: وبأيِّ شيء أَرْسَلَكَ؟ قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ**»، قلتُ له: فمَنْ مَعَكَ على هذا؟ قال: «**حُرٌّ وَعَبْدٌ**»، قال: ومَعَهُ يومئذٍ أبو بكر وبلالٌ ممَّن آمَنَ به . . الحديث.

وفي «صحيح البخاري» (٧٣٧٢) قول ابن عباس: لما بعث النبيُّ ﷺ معاذَ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ...**» الحديث. وأخرجه مسلم (١٩).

وجعفر بن أبي طالب لما خاطبه النجاشي في شأن النبي ﷺ وعرَّفه برسوله ﷺ فقال: «. . . حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منا نعرف نَسَبَه وصِدْقَه وأمانته وعَفَافَه، فدعانا إلى اللَّه لنوحِّده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصِدْقِ الحديث . . .» الحديث. أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢) بإسناد حسن.

إلى غير ذلك من الأحاديث التي تبين أن النبي ﷺ دعى في أول دعوته للتوحيد ونبذ الشرك، وهي أدلة قوية لما قال المؤلف -رحمه اللَّه وطيَّب ثراه- أن أعظم ما أمر اللَّه به التوحيد.

* وقوله: «وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٥]»:

أصرح من هذه الآية قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقوله ﷺ لما سُئل: أيُّ الذنب أعظمُ عند اللَّه؟

قال: «**أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ**»، قال: قلت -أي: السائل-: ثم أيّ؟

قال: «**وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ**».

قال: قلت: ثم أيّ؟

قال: «**أَنْ تُزَانِيَ بِحَلِيلَةِ جَارِكَ**».

أخرجه البخاري (٤٤٧٧).

ومن الآيات الأخرى التي حذرت من الشرك:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

وقال: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وقال ﷺ: «**مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ**».

أخرجه البخاري (٤٤٩٧) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا كان ذلك كذلك؛ فوجب على العاقل أن يتعلم ما يؤدي إلى الشرك

فيحذره ويحذِّر منه وليه وحميمه وصديقه وجاره وأهله، فكل ذنب يمكن أن يغفره اللَّه سوى الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

والشرك مُحَذَّرٌ منه سواء كان الشرك الأكبر أو الأصغر؛ فالأصغر كبيرة من كبائر الذنوب، والأكبر مخرج من الملة.

● **وقول المؤلف: «وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ»:**

نعم، ما تحدث المتحدِّث بمثل الحديث عن النهي عن الشرك، والحديث عن التوحيد، وليبدأ الداعية به فلا خير في عمل إن أخل به، وبه يدخل المرء الجنة ويُوقى للنار، وكل عمل مع وجود الشرك حابطٌ.

وهو أول ما أمر النبي ﷺ به، بل هو أصل دعوة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

ورسول اللَّه ﷺ بدأ بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك:

فقد قال عمرو بن عبسة: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة وأنهم ليسوا على شيء وهم يعبدون الأوثان، فسمعتُ برجل بمكة يُخبر أخبارًا، فقعدتُ على راحلتي فقدمتُ عليه، فإذا رسولُ اللَّه ﷺ مستخفيًا جُرَءَاءُ عليه قومُه، فتلطفت حتى دخلتُ عليه بمكة فقلتُ له: ما أنت؟ قال: «**أَنَا نَبِيٌّ**»، فقلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «**أَرْسَلَنِي اللَّهُ**»، فقلتُ: وبأيِّ شيء أرسلك؟ قال: «**أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ...**» الحديث. أخرجه مسلم (٨٣٢).

ولما بعث ﷺ معاذًا على اليمن وقال له ﷺ: «**إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ تَعَالَى...**» الحديث. أخرجه البخاري (٧٣٧١).

وفي رواية (١٣٩٥): «**ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ...**» الحديث.

وأرسل عليًّا رضي الله عنه يوم خيبر فقال له: «**عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ**».

أخرجه البخاري (٢٩٤٢)، ومسلم (٢٤٠٦).

وفي «صحيح مسلم» (١٧٣١): «كان رسولُ اللَّه ﷺ إِذَا أَمَّرَ أميرًا على جيش أو سَرِيَّةٍ أوصاه في خاصَّتِه بتقوى اللَّه . . . قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا . . . ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ . . .» الحديث.

وكذا فعل أصحابه رضي الله عنهم.

فالبداءة بالتوحيد أولًا لمن لم يعرف التوحيد.

فاهتمام بعض الناس بالرقائق التي يهواها العوامُّ وتركهم على الشرك من عبادة أصحاب القبور، ونذر لمن يسمُّونهم بالأولياء، ودعاء غير اللَّه، وحلف بغير اللَّه، واعتقاد نفع الأموات والتقرب لهم من دون اللَّه . . . إلخ.

ترك الناس على هذا والاهتمام بالرقائق، هذا من فخوخ الشيطان فإن المرء لو تقرَّحت جباهه من العبادة للَّه وتورَّمت قدماه وانكسر ظهره ثم هو مع ذلك أتى بشرك تركه اللَّه وشِرْكَه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]

كما قال ﷺ: «**قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». أخرجه مسلم (٢٩٨٥).

فمن بدأ بتعليم الناس، بتذكير الناس، بدعوة الناس بغير هذا كان بعيدًا عن منهج الأنبياء في الدعوة إلى اللَّه، وكذا العلماء الذين ركَّزوا على التوحيد أولًا، وضبط منهج أهل السنة للمدعوين.

● **وقول المؤلف: «وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ»:**

هذه صورة أخرى من صور الشرك، والشرك له صورٌ كثيرة.

فالدعوة لابد أن تكون خالصة صوابًا، كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]؛ أخلصه وأصوبه.

الإخلاص: أن تكون الدعوة للَّه وحده لا شريك له، وأصوبه: أن تكون الدعوة وفق منهج النبي ﷺ لاسيما في هذا الزمان الذي انتشر فيه الشرك.

فإذا بدأ الإنسان بغير التوحيد، وتدريس كتب التوحيد، والتنبيه على الشركيات ... فهل تكون دعوته صوابًا؟

الجواب: لا، إلا إذا كان المدعوين يعلمون التوحيد ويعلمون الشرك بدليله قبل ذلك، فحينها يُدعون إلى ما يجهلونه لأن دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الشرك وهم علماء به كأنه تحصيل حاصل في هذه الحالة إلا إذا غلب على علم الداعي أنهم يعلمونه فبدأ بغيره، وتبيَّن أنهم جهال به، فهنا هو معذور فيما مضى، لكن يستأنف ويهتم بالدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك أولًا، واللَّه أعلم.

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ».

الشرح:

ذكر المؤلف هذا بصيغة السؤال لينتبه القارئ، وهذا موجود بكثرةٍ في ثنايا كلام الأئمة، ينتبه به القارئ.

وقد أشرنا قبل إلى ما يرنو إليه المؤلف هنا من أنه بنى كتابه على شرح هذه المسائل الثلاث التي سيُسأل عنها المرء في القبر: «**مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟**» فجعلها الأصول الثلاثة.

وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث الواردة في ذلك.

● وقول المؤلف: «**الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا**»:

لعله عبَّر بالإنسان ليعم الوجوب نوع الإنسان المسلم والكافر على السواء، يجب عليهم تعلُّم هذه الأصول الثلاثة.

وهذه الطريقة التي سلكها المؤلف طريقة عرض المعلومة على هيئة السؤال والجواب هي طريقة سلفية لها وقع في النفوس، وهي سبب لتثبيت المعلومة وإيقاظ الغافل وتنبيه المشغول.

وهي في قوله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**» كما في «صحيح مسلم» (٢٥٨١).

وقوله ﷺ: «**أَتَدْرُونَ أَيْنَ تَذْهَبُ هَذِهِ الشَّمْسُ؟**»، كما في «صحيح مسلم» (١٥٩).

وقوله ﷺ: «**أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ ... أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ ... أَلَيْسَتِ الْبَلْدَةَ؟**»، كما في «صحيح البخاري» (٤٤٠٦)، ومسلم (١٦٧٩).

وقوله ﷺ: «**مَا تَقُولُونَ فِي السَّرِقَةِ؟ ... مَا تَقُولُونَ فِي الزِّنَى**». أخرجه أحمد (٦/ ٨) بسندٍ صحيح.

وقوله ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ؟**» سؤال جبريل لرسول اللَّه ﷺ، كما في «صحيح البخاري» (٣٩٩٢).

وقد أشرت إلى محاسن هذه الطريقة في مقدمة كتابي «تبصير النساء بما يهمهن من شريعة رب الأرض والسماء».

ولذلك جعلته خمسة مجلدات على هيئة السؤال والجواب، فراجع مقدمته هناك ففيها مزيد أدلة على تقرير هذه الطريقة النبوية، واللَّه الموفق.

ولكن لا يعني هذا أن يكون العلم كله يساق بهذه الطريقة، فلم تكن طريقة رسول اللَّه ﷺ هكذا، وإنما كان أحيانًا وأحيانًا، وكانت طريقته ﷺ متنوعة أحيانًا على هيئة الإلقاء، فإذا أراد أن ينبِّههم يستخدم هذه الطريقة يسألهم ثم يجيب.

وبذلك يكون المؤلف تكلَّم في الكتاب على سبعة مسائل:

الأولى: وجوب العلم، الثانية: العمل به، الثالثة: الدعوة إليه، الرابعة: الصبر على الأذى في ذلك وغيره.

ثم هنا ذكر المسائل التي هي أصل الكتاب، والتي سيُسأل الميت في قبره عنها، فإن كان مؤمنًا موقنًا أجاب بـ: «ربي اللَّه، وديني الإسلام، ونبيي محمدٌ ﷺ»، وإن كان غير مؤمن أو غير موقن قال: «ها ها لا أدري، كنتُ أسمعُ الناس يقولون شيئًا فقُلْتُه»، فيُضرب ويُقال له: «لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ»، كما في الحديث، نسأل اللَّه التثبيت.

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ».

الشرح:

عاد إلى طريقة السؤال والجواب ثانية لكونها طريقة مشوِّقة ومنبِّهة للقارئ، وهو يشرح هذه الأسئلة الثلاثة التي جعلها أصولًا -وحُقَّ له-.

والهدف أنه يشرحها ليُفمها القارئ فيحفظها حتى إذا سئل في قبره أجاب بلا لقلقة ولا تردُّدٍ، فيُعَرِّف القارئ ربَّه لتسهل عليه الإجابة فيقول: «رَبِّيَ اللَّهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ» أي: رعاهم.

والعالمين: جمع عالَم، سمُّوا كذلك لأنهم علمٌ على خالقهم سبحانه، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والطير عالَم، والحيوان عالَم، والنبات عالَم، والحشرات عالَم، والملائكة عالَم، كل هذه العوالم يطلق عليها العالمين، فاللَّه تعالى هو الذي ربى كلَّ هؤلاء وأمدَّهم بنعمه التي لا تُحصى، ورزَقهم، فمن معاني كلمة «الرب» التربية، ومنها: الإصلاح والقيام بالأمر، والسيادة والتدبير.

كما قال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لفرعون حينما سأله عن الربِّ سبحانه، فقال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩-٥٠].

● وقوله: «وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ»:

هذا حصر لأفراده بالعبادة لا شريك له ولا ربَّ سواه، وأكد ذلك

بقوله: «لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ»، كما قال الشيخ العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ.

هو الذي تصلح له العبادة، ولا أدعو إلا إياه، وهذا لازم ربوبيته، فبما أنه الرب السيد المدبر . . . فهو المستحق للعبادة.

كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦].

- وقوله: «الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ»:

هذا اعتراف منه بربوبية اللَّه تعالى.

- وقوله: «وَهُوَ مَعْبُودِي»:

اعتراف له باستحقاق العبودية.

وقد قدَّم اعترافه بالربوبية على اعترافه بالعبودية لكون الأول دليلًا على الثاني، فقدَّم الدليل؛ لأن الدليل على استحقاق اللَّه للعبادة أنه المربي لجميع العالمين.

وتربية اللَّه تعالى للعبد بالنعم الذي يسدلها عليه من رزق وصحة وفهم وعلم . . . إلخ، وتربية بالوحي الذي يربي الإنسان به تربية دينية.

ثم ذكر المؤلف بعض الأدلة على ما ذكر.

* * *

● **قال المؤلف:**

«**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]. **وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ**».

الشرح:

● **قوله: «وَالدَّلِيلُ»:**

أي: على ما تقدم من إثبات ربوبية اللَّه تعالى.

● **قوله: «وَكُلُّ مَا سِوَى اللَّهِ عَالَمٌ»:**

هذا تفسير لكلمة العالمين.

وقد فسَّر موسى عليه السلام لفرعون معنى ربِّ العالمين حينما قال له فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فقال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

هذا كأنه خطاب توضيحي من المسئول في قبره للملك، إجابة شافية واضحة تدل على أنه يعرف ربَّه معرفة كاملة، يوضحها الشيخ رحمه الله بأنه واحدٍ من هذا العالم، وإذا كان كذلك فلا يجوز له أن ينفك عن عبادة اللَّه تعالى.

● **وقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:**

معنى الحمد؛ أي: ذكر محاسن المحمود مع حبِّه وتعظيمه وإجلاله، فهو إخبار عن صفات المحمود مع المحبة والتعظيم والإجلال[1]، فإن

---

(١) من كلام الشيخ الحازمي في شرح الكتاب.

خلا عن الثاني، وهو المحبة، فهو مدح لا حمد، فمن ذكر محاسن شخص فقط فقد مدحه، فإن أحبَّه مع مدحه فكأنه حَمِدَه.

وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾: أي: هو المستحق للحمد.

* * *

● قال المؤلف:

«**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ، وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا**».

الشرح:

يستطرد المؤلف في تعريف المرء بربِّه، ويحثه على الاستدلال ليزداد في معرفته بربِّه فيقول: «**فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟**».

يطلب المؤلف دليلًا عقليًّا، كما يدل على ذلك إجابته، والمعنى: بِمَ استدللت على معرفتك لربِّك؟

«**فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ**» التي ذكرها المؤلف: «**السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا**» وغير ذلك كثير، كل هذا خلق اللَّه، وآية من آياته.

والآية: العلامة، وهذه العلامات التي تدل على اللَّه -تبارك وتعالى- قدرته وعزَّته وقوته . . . في الكون أكبر من أن تُحصر.

فإذا تأمل الإنسان فيها ازداد معرفة بربِّه.

إذا تأمل المرء في مخلوقات اللَّه ازداد معرفة بربِّه، كيف أحكم اللَّه الخلق إحكامًا دقيقًا، بل لو تأمل المرء في خلق نفسه والحكمة من خلق كلِّ عضو على هذه الهيئة لبلغ من المعرفة بربِّه مبلغًا عظيمًا.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنَّه واحدٌ

والآيات كونية، وهي التي أشرنا إليها.

فطريقة معرفة اللَّه تعالى بالنظر في الآيات الكونية قد دعى اللَّه تعالى للنظر فيها، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

أما طريقة أهل البدع: أنهم يقولون معرفة اللَّه بالعقل، وهذا خطأ.

ومقصود أهل البدع: أن العقل يمكن أن يستقل بمعرفة اللَّه، هذا خطأ، والعقل يُستخدم نعم في معرفة الآيات الشرعية والكونية.

وشرعية، وهي التي في القرآن والسنة (التأمل في تشريعات اللَّه وأوامره ونواهيه وما اشتملت عليه من الحكمة البالغة) في التأمل في هذا وذاك يعين المرء على مزيد من معرفته بربِّه سبحانه.

هذه طريقة أهل السنة في التعرف على اللَّه تعالى: النظر في الآيات الكونية والشرعية.

* * *

● **قال المؤلف:**

«**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]».

الشرح:

آيات اللَّه كثيرة جدًّا، وهذه الآية فيها ذكر بعض هذه الآيات.

وفيها: النهي عن العبادة لغيره، فكيف يسجد المرء لمربوبٍ كالشمس والقمر، كما كان قوم إبراهيم الذين حاجُّوه في ربِّه يفعلون، وقد أقام اللَّه عليهم الحجة.

وفي الآية: الأمر بالسجود للَّه وحده الذي خلقهن، أفيسجدُ المرء لمخلوقٍ أم للخالق أيهما أشرف وأحسن؟

فإن كان المرء يريد العبادة أصلًا وعدم الاستكبار عليها فلا يسجد إلا له وحده؛ لأن السجود عبادة للَّه تعالى، والعبادة لا تكون إلا للَّه وحده.

وسبحان اللَّه!

أيتخذ إنسانًا إلهًا هو مألوه للَّه وحده؟!

وهي مخلوقات تسبِّح اللَّه تعالى وتعترف بالعبادة له وحده، فما مثال هؤلاء إلا كمثال الذين وصفهم اللَّه تعالى في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

أخرجه مسلم (٣٠٣) عن عبد اللَّه بن مسعود: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ قال: كان نفرٌ من الإنس يعبدون نفرًا من الجن، فأسلم النفرُ من الجنِّ، واستمسك الإنس بعبادتهم، فنزلت: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾».

وعن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه في «الصحيحين» أنه قال ذلك في تفسير الآية ولكن ليس فيه أن سبب نزول الآية هو هذا.

وقد علَّل اللَّه تعالى السجود له وحده دون هذه المخلوقات الشمس والقمر . . . بأنه سبحانه هو الذي خلق هذه الأشياء، فهو أولى أن يُسجد له ويُعبد . . .

كما أن في الآية تحذيرًا من عذاب اللَّه، فإنه أجدر أن يحذره اليقظان.

وفي الآية: أن السجود عبادة للَّه تعالى، لا تجوز إلا للَّه وحده، لكن هذا في شرعنا، وفي شرع بعض الأمم من قبلنا[1]، أما في شرع غيرنا فكان السجود أحيانًا يكون تحية، فقد سجد يعقوب عليه السلام وزوجه ليوسف عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، فهذا سجود تحية لا سجود عبادة.

وسجد معاذ رضي الله عنه لرسول اللَّه ﷺ ويبدو أنه سجد له تحيةً لا عبادة، فنهاه ﷺ، وذلك حين جاء من الشام وقال: إنه رآهم يسجدون للملوك.

فقد أخرج ابن ماجه (١٨٥٣) وغيره عن عبد اللَّه بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي ﷺ قال: «**مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟**» قال: أتيت الشام

(١) كما كان هرقل، فإن قومه كانوا يسجدون له، كما في حديثه في «الصحيحين»: «فَسَجدوا له. وكان ذلك آخر شأن هرقل». وهذا السجود كان عبادة.

فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال ﷺ: «**فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**» وإسناده ثابت.

أما السجود لغير اللَّه على وجه العبادة؛ فلم أعلم أن ذلك كان مباحًا في أية شريعة من الشرائع، واللَّه أعلم.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]. وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ».

الشرح:

● قول المؤلف: «وَقَوْلُهُ تَعَالَى»:

يعني: الكلام معطوف على الدليل الماضي على تعداد مخلوقات اللَّه تعالى.

الرب هو المعبود، بدلالة الآية التي سيذكرها بعد، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

فيُعبد لكونه هو الربَّ الذي خلق.

● وفي الآية بيان أمور:

- أن الربَّ هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام، وهو سبحانه قادر على أن يخلق كل هذا بـ: (كُنْ) فتكون، لكن محل الحكمة هو تعليم عباده التأني، وإلا فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وهذه الستة أيام مفصلة في مقام آخر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢].

- وأن اللَّه تعالى استوى على العرش مستوٍ على العرش، علا وارتفع، كما قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١]؛ أي: قصدها بعد خلق السموات والأرض، نؤمن بالاستواء على ظاهره من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تحريف.

- وأنه يجعل الليل غشاءً للنهار يسدل على ضوء النهار فيغطيه.

- وأنه سبحانه جعل الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، وهذا عظيم.

- وأنه سبحانه له الخلق، فالخلق خلقه والأمر أمره.

- وأنه سبحانه له الأمر في السلطان يأمر بما فيه المصلحة.

- وأنه سبحانه هو رب العالمين المستحق للعبادة لكونه الربَّ سبحانه.

ثم ذكر المؤلف الآية التي استدل بها على استحقاقه للعبادة بمقتضى ربوبيته كدليل من سورة البقرة.

- **ومعنى** ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾:

أي: يغطي كل واحد منهما الآخر فيذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا ﴿حَثِيثًا﴾ أي: سريعًا لا يتأخر عنه، إذا ذهب هذا جاء هذا، والعكس.

- **وقوله سبحانه**: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾:

لها فوائد، فالشمس تضيء وتدفئ، والقمر كذلك في الليل، والنجوم زينة للسماء ورجومًا للشياطين وعلامات يهتدي بها السائرون، فالأمر أمره.

● **ومعنى ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ :**

تبارك : أي : عظم خيره وكثر إحسانه، مبارك في أسمائه وأفعاله وصفاته وذاته .

● **وقول المؤلف : «وَالرَّبُ هُوَ الْمَعْبُودُ» :**

كأن المؤلف يضبط الأمور، فبما أنه الربُّ فإذًا هو المعبود .

والمشركون لو أقرُّوا بتوحيد الربوبية على صفة الكمال لأثمر عندهم تحقيق العبودية للَّه تعالى وحده، وإفراده بذلك واتباع رسوله ﷺ .

* * *

● **قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:**

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]».

الشرح:

هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

وهذا أمر عامٌّ لكل الناس بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامتثال أوامر اللَّه واجتناب نواهيه وتصديق ما أخبر به.

فأمره تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ثم استدل على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي ربَّاكم بأصناف النعيم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها وتنتفعون بالأبنية والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

● **وقوله:** ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾:

السماء: هو كل ما علا فوقك فهو سماء.

أنزل اللَّه من السحاب من فوق ماءً.

﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه وزروع وغيرها.

﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾: به ترتزقون، وتقوَّتون وتعيشون وتفكهون.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾: أي: نظراء وأشباهًا من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون اللَّه، وتحبونهم كما تحبون اللَّه، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبَّرون لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أن اللَّه ليس له شريك ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟! هذا من أعجب العجب وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة اللَّه وحده والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرًّا بأنه ليس له شريك في ذلك فكيف يكون له شريك في العبادة؟

وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري وبطلان الشرك.

● **وقوله تعالى**: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾:

يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم اللَّه وحده اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أتيتم بالسبب الدافع لذلك.

ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم اللَّه صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين صحيح، وهما متلازمان.

فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين، ومن كان من المتقين حصلت له النجاة من عذاب اللَّه وسخطه»[1].

---

(١) بتصرف يسير من «تفسير السعدي» رَحِمَهُ اللَّهُ.

واعلم -بارك اللَّه فيك- أن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١] تدل على دخول الجنِّ في الأمر بضميمة قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كَانَ نَاسٌ مِنَ الجِنِّ يُعْبَدُونَ فَأَسْلَمُوا». أخرجه البخاري (٤٧١٥).

فسمَّى الجنَّ ناسًا، فدل دخولهم في هذا الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ...﴾.

الآية الثانية نهى تعالى عن اتخاذ الأنداد من دون اللَّه فقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢] لا تتخذوا شركاء من دون اللَّه.

* * *

● قال المؤلف:

«قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ».

الشرح:

هذا الكلام ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٣٣) لقوله تعالى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥].

وتمام كلامه: «. . . وحده لا شريك».

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلام، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ، وَغَيْرُ ذَلَكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]».

الشرح:

كذا بين المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ استحقاق اللَّه للعبادة، ثم ذكر أنواع هذه العبادة.

وقد أشار شيخ الإسلام المؤلف إلى أن هذه الأنواع من العبادة فيما تقدم، ويُعرف أن كذا عبادة: أن يثني اللَّه على فاعله، أو يرتب الأجر على فعله، فيصلح أن يقال هذا عبادة وطاعة.

● وقوله: «الإِسْلام، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ»:

هذه مراتب الدين كله.

ودليل كون هذه من العبادة، بل هي مراتب الدين: الحديث المشهور، حديث جبريل يوم أن سأل رسول اللَّه ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال له: «الْإِسْلَامُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ الْبَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ

إِلَيْهِ سَبِيلًا».

وقال عن الإيمان: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وسأله عن الإحسان فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**». وأخرجه البخاري ومسلم.

ثم شرع المؤلف في بيان الأدلة على أن هذه الأشياء من العبادات التي من صرف شيئًا منها لغير اللَّه كان مشركًا، فيثبت أولًا أن ما ذكره عبادة، ثم ليثبت ثانيًا أن من صرف شيئًا منها لغير اللَّه فهو مشرك كافر.

- **قوله: «وَمِنْهُ الدُّعَاءُ»:**

أي: من العبادة التي لا يجوز صرفها إلا للَّه: الدعاء، فإنه عبادة، وصرف العبادة لغير اللَّه شرك.

- **ومما يدل على كون الدعاء عبادة:**

ما أخرجه الترمذي (**٢٩٦٩**) وغيره من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وإسناده صحيح.

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨-٤٩].

فدل ذلك على أن الدعاء عبادة، ودعاء العبادة هو الدعاء بمعنييه،

سواء كان دعاء عبادة -ثناء- أو دعاء مسألة -طلب-[1].

فمن دعا غير اللَّه فقد عبده.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

فالدعاء: دعاء مسألة ودعاء عبادة.

فالأول: أن يطلب مسألته من اللَّه، ويصح ذلك من العبد إذا كان حيًّا قادرًا على ذلك.

وأما دعاء العبادة: فهو التعبُّد للَّه يطلب ثوابه.

وقد استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، ووجه الدلالة من آخرها: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

فيحرم بالآية أن يُجعل مع اللَّه أحدٌ في أيٍّ مما ذكر: في الدعاء، أو الخوف، أو الخشية، أو الإنابة، أو الاستعانة، أو غير ذلك.

وبهذه الآية كره بعض أهل العلم أن يُسمى المسجد مسجد فلان أو مسجد بني فلان، مستدلًّا بهذه الآية، كإبراهيم النخعي، لكن الأثر إليه أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٢٣٨ط عوامة) وفي السند ضعف من قِبَل رواية المغيرة عن إبراهيم وهو يدلس.

والصواب في المسألة: لا بأس، لأن الإضافة إضافة تمييز لا إضافة تمليك، فالتسمية لتمييز المسجد عن غيره لا بأس بها.

---

(١) وقد ذكرت الفرق بين النوعين في كتابي «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة».

وقد ذهب جمهور العلماء إلى جواز إضافة المسجد إلى فلان أو بني فلان، كذا عزاه إليهم الحافظ في «الفتح» (١/ ٦٤٣).

وقد بوَّب البخاري بباب: هل يُقال مسجد بني فلان؟ وأخرج فيه حديث ابن عمر أن رسول اللَّه ﷺ سابق بين الخيل التي أُضمرت من الحفياء وأمرَّها ثنية الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تُضمَّر من الثنية إلى مسجد بني زريق، وأن عبد اللَّه بن عمر كان فيمن سابق بها، برقم (٤٢٠)، ومسلم (١٨٧٠).

وأخرج ابن أبي شيبة (٢/ ٤٣٨) بإسنادٍ صحيح عن جابر أنه قال: فأتى مسجد معاذ.

وأخرج بإسنادٍ حسن عن عاصم بن بهدلة قال: «سمعتُ زرًّا وأبا وائل يقولان: مسجد بني فلان».

لكن إذا كانت التسمية للشهرة والسمعة فتُمنع لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

ولا يفوتني ما نبَّهت عليه في كتابي «تدبير الأبنية والعمران» (ص٢٧٣) من أن من كتب اسمه على المسجد الذي يبنيه كان بعيدًا منه الإخلاص، كما قال ابن الجوزي فيما حكاه عنه الحافظ في «الفتح» (١/ ٦٨٠)، وراجع كتابي المشار إليه آنفًا.

● **وقوله**: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]:

هذا حقيقة الحال، مَنْ عبد مع اللَّه إلهًا آخر فلا برهان يثبت أحقيته لأن يعبده.

والآية الثانية دليلٌ على أن الدعاء عبادة، فمن استنكف عن دعائه فهو متكبر سيدخل جهنم صاغرًا، فمعنى ﴿دَاخِرِينَ﴾ أي: صاغرين، أجارنا اللَّه من الصغار في الدارين.

ويستفاد من الوعيد المذكور في الآية حرمة دعاء غير اللَّه.

ووجه الدلالة من الآية: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]: على أن هذه العبادات المذكورة الدعاء والخوف والرجاء . . . إلخ، فيها توجيه دعاء اللَّه والتوجه بها أو ببعضها لغير اللَّه صرف ما للَّه لغير اللَّه.

* * *

● **قول المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ؛ وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وَفِي الْحَدِيثِ: «**الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ**». **وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]»:

الشرح:

● **قول المؤلف**: «**فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا**»:

أي: ولو يسيرًا، لا يشترط أن يكون صرف العبادة كلها.

«**لِغَيْرِ اللَّهِ؛ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ**»: أي: الشرك الأكبر المخرج من الملة.

وكأن المؤلف جمع بين اللفظين ليقول: مشرك كافر لا فرق.

وهذا صحيح في المؤدَّى النهائي خالدٌ مخلَّد في النار، وينصرف الشرك والكفر عند الإطلاق إلى الأكبر المخرج من الملة.

والآية دليل على أن الدعاء عبادة، وقد تقدم أدلة كون الدعاء من العبادة، والحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، ولكن إسناده ضعيف. فليت المؤلف اعتاض عما ذكره بما ذكرته قبلُ «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، فإنه أصح من ناحية السند، ومعناه: أن من أعظم ما يتعلق بالعبادة الدعاء، فلشدة تعلق الدعاء بالعبادة أطلق رسول اللَّه ﷺ عليه العبادة.

والآية التي ذكرها المؤلف صريحة في الدلالة، وتقدم الكلام عليها واللَّه أعلم.

● **وقوله**: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾:

أي: لا حجة له ولا برهان عنده على ذلك، وحسابه عند اللَّه لا عند غيره، وسيحاسبه على صرفه ما للَّه لغير اللَّه، وهو في عداد الكافرين بدلالة عجُز الآية، ولا يفلح أبدًا، فلا حظَّ له من الفلاح إن مات من غير توبة.

ومن الدعاء: التوسل، وهو أقسام:

الأول: توسلٌ بأسماء اللَّه وصفاته كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الثاني: توسل بصالح الأعمال كما في قصة الثلاثة أصحاب الغار، فقد توسَّل كلٌّ منهم بعمل صالح عمله ابتغاء وجه اللَّه، والقصة في «الصحيحين».

الثالث: طلب الدعاء من صالح يدعو له شريطة أن يكون حيًّا قادرًا صالحًا، فالدعاء بظهر الغيب مستجاب يوكل اللَّه مَلَكًا يقول: «نَعَمْ، ولَكَ بِمِثْلٍ»، فيدعو الإنسان لا يعجل، لا يقول: دعوت فلم يُستجب لي، وللدعاء آدام منها طيب المطعم والمشرب، وعدم الاعتداء في الدعاء، والابتعاد عن السجع المتكلف، وتحري أوقات الإجابة المعروفة التي نبهنا عليها في غير الموطن.

ثم بدأ المؤلف -رحمه اللَّه تعالى- يذكر دليل كل نوع مما ذكر أنه من العبادة التي صرفها لغير اللَّه شرك.

والدعاء: دعاء عبادة ودعاء مسألة:

دعاء عبادة: هو التوجه إلى اللَّه بالعبادات كلها خوف، ورجاء، واستعانة، وثناء، . . . هذا دعاء عبادة.

أما دعاء المسألة: فهو الطلب من اللَّه أن يعطيك كذا، أو . . .

ولا يصرف دعاء المسألة لغير اللَّه إلا إذا كان المدعو حيًّا قادرًا حاضرًا، كما بيناه في غير هذا الموطن، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «**مَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ**» أخرجه أبو داود (٥١٩) بإسنادٍ صحيح.

وفيه رواية الأعمش، عن مجاهد وهي على شرط الصحيح، وثم شاهد للمعنى بلفظ: «**مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِوَجْهِ اللَّهِ فَأَعْطُوهُ**». أخرجه أحمد (٢٢٤٧)، وأبو داود (٥١٠٨) بإسنادٍ حسن.

* * *

* قال المؤلف:

«وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]».

الشرح:

● **قوله**: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾: نهى اللَّه عن الخوف من أولياء الشياطين.

● **قوله**: ﴿وَخَافُونِ﴾: أمرٌ، وأمر اللَّه لنا بشيء يبين أن الامتثال عبادة، لاسيما وقد علق اللَّه الخوف بالإيمان، فإذا لم تفعلوا فقد سلبتم شرطًا من شروط صحة الإيمان.

الخوف: هو انفعال يحصل بتوقع ما منه هلاك أو ضرر أو أذى.

والآية صريحة في أن الخوف عبادة، فمعناها: تعليق الخوف على صريح الإيمان، فالمؤمن يخاف اللَّه، فمن خاف من مخلوق خوف السر أن يصيبه بمكروه فقد صرف عبادةً لغير اللَّه تعالى.

● **والخوف ثلاثة أنواع**:

الأول: الخوف الجبِّلي المعروف عند ابن آدم:

كخوفه من عدوٍّ أو أسد أو كلبٍ عقور أو حيَّة أو ما شابه ذلك.

ومنه: قوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١]، ولعل رسول اللَّه ﷺ وأبو بكر كانا خائفين من كفار قريش يوم الهجرة، وهما في الغار.

فهذا الخوف الجبلي، لا يقال: هو شركٌ؛ لأنه لا يؤثر على الإيمان.

الثاني: خوف العبادة:

أن يخاف أحدًا يتعبد بالخوف له، فهذا لا يكون إلا للَّه تعالى، وصرفه لغير اللَّه تعالى شرك أكبر، وهذا كالخوف من إنسان يُحمل بسببه على فعل محرم غير مضطر.

النوع الثالث: خوف السر:

كأن يخاف صاحب القبر أو وليًّا بعيدًا عنه لا يؤثِّر فيه، لكنه يخافه مخافة سر، فهذا ذكره العلماء من الشرك.

ووجه ذلك: أنه لم يخفه بهذه الصورة إلا لاعتقادٍ فاسد أن لهذا الميت تأثيرًا في الأمور[1].

ولذلك، فإن الكفار كانوا يخافون من الآلهة خوف السر، فقال أولئك الكفار عباد القبور لنبي اللَّه هود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ [هود: ٥٤]، فهم يعتقدون أنها يُخاف منها.

* * *

(١) بتصرف من شرح الشيخ العثيمين (ص٤٣).

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]».

الشرح:

الرجاء: هو طمع الإنسان في شيء منفعة.

والدليل على أن الرجاء عبادة: قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، شُرط العمل الصالح بمتابعة وإخلاص.

وهذه الآية دليل على أن الرجاء عبادة.

والمقصود من الرجاء هنا: الرجاء المتضمن للذل والخضوع فيرجو المرء رحمة اللَّه وسعة عطائه ومغفرته وجنته.

وقد يرجو المرء من آخر حي قادر شيئًا يقدر عليه، فهذا لا بأس به، إنما الرجاء الشركي هو الرجاء المتضمِّن للذل والخضوع والانكسار، فهذا لا يكون ولا ينبغي إلا اللَّه تعالى.

لكن من كان يرجو فليعمل، فلا يرجو بغير عمل.

وقد أخرج أحمد في «الزهد» (١٦٧٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٩) بإسنادٍ ثابت عن معاوية بن قرة أنه جلس ورجلٌ من التابعين يتذاكران فقال أحدهما: «إني لأرجو وأخاف»، وقال الآخر: «إنه من رجا شيئًا طلبه، وإنه من خاف من شيء هرب منه، وما حسب امرئ يرجو شيئًا لا يطلبه، وما حسب امرئ يخاف شيئًا لا يهرب منه؟».

ومثله عن مسلم بن يسار بنحو من ألفاظه، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» **(٢/ ٢٩٢)** وفيه قال: «. . . وما أدري ما حسب خوف امرئ عُرضت له شهوة لم يدعها لما يخشى» ولا يصح سنده.

ونحوه عن المضاء بن عيسى بنحو من ألفاظه، أخرجه الحنائي في «الحنائيات» رقم **(٢٥٣)**.

وهذا منهج معروف لأهل السنة يخالف فيه المرجئة فيرجئون الأعمال، عافانا اللَّه من سوء المعتقد.

فيرجو المرء رحمة اللَّه فيعمل بمقتضاها، ويذنب فيستغفر ويتعبد، فإن الحسنات يُذهبن السيئات، ويعمل بأسباب تحصيل المنافع، فيكون موافقًا للشرع والعقل، واللَّه الموفق.

وأخرج أحمد **(٨٨١١)**، والترمذي **(٢٢٦٣)** بإسنادٍ صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ وَقَفَ على ناسٍ جُلُوسٍ فقال: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِكُمْ وَشَرِّكُمْ؟**» قال: فسَكَتُوا، فقال ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فقال رجلٌ: بَلَى يا رسولَ اللَّه أخبرنا بخَيْرِنا وشَرِّنا، قال: «**خَيْرُكُمْ مَنْ يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، وَشَرُّكُمْ مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّه**».

فلا يكفي الرجاء، بل لابد من الأعمال، فكيف يرجو الإنسان وهو لا يُؤمن شرُّه ولا يُرجى خيره.

وفي الباب قوله ﷺ: «**وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ... مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ ..**».

وقوله ﷺ: «**وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ ... مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**».

وكلاهما صحيح خرجته في «فقه التعامل مع الجار».

● والآية فيها عمومان:

الأول: من قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

ففي ذلك النهي عن عموم الشرك، كبيره وصغيره، عظيمه وحقيره.

الثاني: من قوله تعالى: ﴿... بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾:

نهي عن الشرك بأي أحد، سواء كان حجرًا، أو شجرًا، أو إنسانًا، أو تمثالًا، أو ملكًا، أو نبيًّا.

لأن ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي تدل على العموم، كما هو معروف في علم «أصول الفقه».

فالآية تدل على النهي عن الشرك بكلِّ صوره، وبأيِّ أحدٍ، واللَّه الموفق.

* * *

• **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**ودَلِيلُ التَّوَكُلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. **وقوله:** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]».

الشرح:

التوكل: هو الاعتماد على اللَّه تعالى وتفويض الأمور إليه -جل وعلا-.

ولذا قال ابن القيم في «المدارج» (١/ ٩٦): «التوكل معنًا يلتئم من أصلين: الثقة والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]».

والتوكل عبادة؛ لأن اللَّه تعالى علَّق الإيمان عليه فقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]. فالتوكل يكون على اللَّه وحده لا على غيره.

وهي أصرح في إثبات أن التوكل عبادة من الآية الثانية، ولعله لذلك قدمها.

ومن توكل على اللَّه فاللَّه حسبه كافيه، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَخْرُجُ خِمَاصًا وَتَعُودُ بِطَانًا**». أخرجه أحمد (٢٠٥) بسندٍ ثابتٍ.

ولا يجوز صرف هذا النوع من العبادة إلى غير اللَّه، فهذا شرك، كالذي يتوكل على ميت أو على وليٍّ أو طاغوت، أو ما شابه ذلك.

وإنما يجوز للمرء أن يعتمد على شخص حيٍّ قادر في عمل مصلحة،

ويعتمد على اللَّه، ثم على شفاعته أو قضاء شيء مما يقدر عليه، ونحو ذلك.

أما التوكل على الغير الذي هو بمعنى الوكالة أو الوصاية؛ فهذا لا بأس به؛ لأنه إنما ينوب عنه في فعل بعض الأمور، والنيابة جائزة بالكتاب والسنة والإجماع، ومحل ذلك في أبواب الوكالة في كتب الفقه، ولكن إذا كنت توكِّل غيرك عنك في أمر ما لا تقول: توكَّلت على فلان، وإنما تقول: اعتمدت على فلان تأدُّبًا- كذا في توكيله في أمر لك، ولكن لتعلم أن تعتقد أن الأمور بيد اللَّه، وإنما هو سبب فقط، والأمور تكون بيد اللَّه، ويعلق القلب به، واللَّه الموفق.

وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: أمرٌ، دليل على أن التوكل عبادة، وفيها دليل على وجوب التوكل على اللَّه، وأصل العبارة: «فتوكلوا على اللَّه» فقدَّم ما حقه التأخير، فدل على الاختصاص، فالمعنى: توكلوا على اللَّه لا على غيره، مثل قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، حق العبارة أن تكون: «نعبدك ونستعين بك»، فلما قدم ما حقه التأخير دل على اختصاص اللَّه بذلك، فالمعنى: لا نعبد إلا إياك، ولا نستعين إلا بك.

فقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾: أي: على اللَّه لا على غيره.

ودلت الآية الأولى على أن التوكل على اللَّه شرط في الإيمان لقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾.

وقد ذكر المؤلف الآية الثانية: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ لبيان ثمرة التوكل، فكأنه يقول: من يتوكل على اللَّه فاللَّه كافيه في أموره وهو حسيبه.

لكن من يتوكل على اللَّه حقيقة فإنه يفوض الأمور إليه، ويتخذ الأسباب، لكن اعتماده يكون على اللَّه ويهتم بالدعاء والاستغاثة والاستعانة باللَّه استعانة من لم يأخذ بأسباب، أو كمن انقطعت به الأسباب.

والأخذ بالأسباب لا يناقض التوكل، بل إن عدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع لأن رسول اللَّه ﷺ أخذ بالأسباب في مواطن كثيرة، وهو سيد المتوكلين ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، مع أنه قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. وقال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

ورسول اللَّه ﷺ جهَّز الجيوش ودرَّبهم، وكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها، وكان يحتاط.

لا يفعل كبني إسرائيل الذين لم يتخذوا الأسباب لتطهير الأرض المقدسة وقد قال لهم حكيمان: ﴿ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة ٢٣]، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

لابد من الأخذ بالأسباب.

فعدم الأخذ بالأسباب طعن في التشريع، والاعتماد على الأسباب طعن في التوحيد، فكأن الإنسان ما توكل على اللَّه، وإنكار اتخاذ

الأسباب طعنٌ في العقل.

• وليهتم بالتوكل:

فقد أخرج عبد اللَّه في «السنة» (٧٧٦) عن أبيه، وهو في «الزهد» (٦٨)، وأبو حاتم في «تفسيره» (٨٧٨٤)، وهناد في «الزهد» (٥٣٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٠٤) ط. الكتب العلمية، بإسناد حسن عن ضرار بن مرة الشيباني عن سعيد بن جبير قال: «التوكل على اللَّه جماع الإيمان».

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]».

الشرح:

الرغبة: هي الرغبة فيما عند اللَّه من الحسنات وغيرها.

وأما الرهبة: فهي الخوف أو الخشية، وهي الرهبة الخوف الذي يشتمل على معنى الفرار إليه، كما قال بعض أهل العلم.

الخشوع: بمعنى التطامُن والذل.

ذكر اللَّه حال أهلِ الفلاح أهل الجنة فقال: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩- ٩٠].

هذا دليل يجمع بين هذه العبادات الثلاث.

فليتعبد الإنسان لربه للفوز بالثواب، والنجاة من العقاب، فكذا كان الأنبياء يتعبدون ويُعلِّمون أُممهم هذا.

هكذا لابد للإنسان أن يعيش بجناحي الخوف والرجاء، كما تقدم كلام بعض التابعين في الكلام على دليل الرجاء للَّه تعالى.

ويُغلِّب جانب الخوف في الحياة ليكثر لجوؤه إلى اللَّه ويُحث على العمل.

أما إذا قدم على سكرات الموت فليغلِّب جانب الرجاء ليُقبل على ربِّه وهو حسن الظن بربِّه، كما قال ﷺ: «**لا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ**». أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

وحتى في الدنيا يغلِّب جانب الخوف إذا كانت الذنوب والمعاصي، ويغلِّب جانب الرجاء في حين الاستعتاب والتوبة والإنابة والرجوع إلى اللَّه تعالى ليقدم على ربِّه.

وللسلف في ذلك أحوال في شدة رغبتهم ورهبتهم وخشوعهم محلها في كتب الرقاق كثير، واللَّه الموفق.

• **واعلم أن الخشوع هو أوائل ما يرفع من العلم:**

فقد أخرج أحمد (٦/ ٢٦-٢٧) وغيره عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ فشَخَصَ ببصره إلى السماء ثم قال: «**هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ العِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ**»، فقال زياد بن لبيد الأنصاري رضي الله عنه: وكيف يُختلس منا ونحن قد قرأنا القرآن، فواللَّه لنقرؤه ولنُقرئه نساءنا وأبناءنا، فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ هَذِهِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ عِنْدَ اليَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟**»، قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت فقلتُ: ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء؟ فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء فقال: صدق أبو الدرداء.

ألا أدلك على أول ذلك يُرفع: الخشوع.

وهو صحيح خرجته في «الفوائد النيرة» (١٥٣٣).

فجدير بالمرء أن يهتم بالخشوع قبل أن يختلس رزقنا اللَّه إياه، وكتب لنا الأجر والقبول إنه على كل شيء قدير.

فلما أثنى اللَّه تعالى على الأنبياء لمسارعتهم في الخيرات، ودعائهم اللَّه خوفًا وطمعًا، دلَّ ذلك على محبة اللَّه لهذا، كما دل أيضًا على أنه عبادة من العبادة.

ومعنى ﴿رَغَبًا﴾: أي: رجاء أو رغبة في رحمتنا.

ومعنى ﴿وَرَهَبًا﴾: أي: خشيةً من عقوبتنا وعذابنا.

ومعنى ﴿خَٰشِعِينَ﴾: أي: متذللين.

وأصل: ﴿لَنَا خَٰشِعِينَ﴾: حقها: «خاشعين لنا» فقدم ما حقه التأخير، وتقديم ما حقه التأخير يفيد الاختصاص، فكأن المعنى: خاشعين لنا لا يخشعون لغيرنا.

كذلك ينبغي أن يجمع الإنسان بين الرغبة والرهبة.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة: ١٥٠]».

الشرح:

الخشية: هي الخوف من اللَّه تعالى مع التعظيم، وهذا لا يكون إلا عن علم بعظمة من يخشى.

وقد ذكر هذه الآية دليلًا للخشية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾، ولذلك كان العلماء من أكثر الناس خشية للَّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فأكثر العلماء يخشون اللَّه.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

هذه الآية تبين ثمرة الخشية للَّه: وهي أن صاحبها من الفائزين، حتى قيل: ليس طلب العلم فلان عن فلان، إنما طلب العلم الخشية للَّه عَزَّوَجَلَّ.

ورد هذا عن سفيان الثوري، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٧٠).

وأخرج محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٧٤٤) بإسناد ضعيف: عن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه قال: «علامة حبِّ اللَّه: كثرة ذكره، وعلامة الدين: الإخلاص للَّه، وعلامة العلم: الخشية للَّه، وعلامة الشكر: الرضا بقضاء اللَّه والتسليم لقدره».

والخشية للَّه تعالى تمنع الإنسان مما لا ينبغي، فكلما قوي جانب الخشية منع الإنسان من أشياء كثيرة محرمة، بل ومكروهة مبغوضة إلى اللَّه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾: نهي وأمر، نهي عن خشية مَنْ سواه ممن سيجادلون بالباطل بسبب تحويل القبلة فلا تخشوا في اللَّه لومة لائم، وأمرٌ بخشيته وحده.

فدل على أن الخشية عبادة أمر اللَّه به له وحده، ونهى عن خشية من سواه.

والآية التي ساقها المؤلف بدايتها: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [البقرة: ١٥٠]، والمقصود بالناس: أهل الكتاب، على رأي أكثر المفسرين أولئك الذين اعترضوا على تحويل قبلة النبي ﷺ من بيت المقدس الشمس إلى بيت اللَّه الحرام، وقالوا -وهم سفهاء-: «اشتاق إلى دين قومه»، ولو لم يكونوا سفهاء لقالوا: «ما الإشكال في تحويل القبلة، فإن للَّه المشرق والمغرب»، تتحول القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى البيت الحرام أو المسجد النبوي، أو إلى قبور البلدة، للَّه المشرق والمغرب أمر بأن تكون القبلة لمكانٍ ما لا إشكال، أو كل ما لم يبلغه العقل القاصر السفيه ينكر؟!

الأصل هو نبيٌّ مؤيَّدٌ بالمعجزات، فما جاءنا به قبلناه، قَبِلَه العقل والعادة أم لم يقبله.

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]».

الشرح:

الإنابة: بمعنى الرجوع إلى اللَّه، أي: بالطاعة.

فقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ أي: ارجعوا إلى ربكم، وأسلموا واستسلموا لحكمه سبحانه، أقبلوا عليه بالطاعات، والإسلام في الآية: الإسلام الشرعي لا الكوني..

قال تعالى عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥] أي: رجَّاع إلى أوامر ربه سبحانه.

والأمر بالإنابة دليل على الوجوب، والأمر بالإسلام له؛ أي: بالتوحيد له سبحانه وحده.

وإن كان الناس قد استسلموا وأنابوا للَّه طوعًا وكرهًا استسلامًا كونيًّا، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

فإنما هذه الإنابة الكونية التي لا يستطيع أحدٌ أن يتخلَّف عنها، وإنما الأمر في الآية المذكورة: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ إنما هي إنابة شرعية، يمكن أن تتخلف ولا ينيب المرء إلى ربه ولا يسلم له، وقد حصل.

والمطلوب من الإنسان أن ينيب إلى اللَّه بطاعته وعدم معصيته...

والإنابة إذا أفردت فهي بمعنى الإسلام وبمعنى الإيمان، لكن إذا قُرنت

بالإسلام كانت الإنابة بالقلب، والإسلام بالجوارح الظاهرة، مثل الإيمان والإسلام إذا جُمع بينهما انصرف الإيمان إلى الاعتقاد -أعمال القلوب-، والإسلام إلى أعمال الجوارح، وإذا انفرد كل واحدٍ منهما شمل الآخر[١].

* * *

(١) «إتحاف العقول بشرح ثلاثة الأصول» للشيخ عبيد الجابري (ص٨٣).
وهو مأخوذ من كلام لشيخ الإسلام (٧/ ٢٥٩) وغيره من الأئمة.

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: «...وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»».

الشرح:

الاستعانة: أي: طلب العون، والآية الأولى صريحة في أن الاستعانة عبادة.

قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: تقدم ما يجب تأخيره يفيد الاختصاص والحصر كما تقدَّمت الإشارة إلى ذلك، لأن أصل الكلام: نعبدُك ونستعين بك.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ لمن أرسله للجهاد: «..**فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ**» وهو في «صحيح مسلم» (١٧٣١).

فالعاقل إنما يستعين باللَّه وحده، لا يستعين بغير اللَّه إلا إذا كان فيما يقدر عليه العبد مما هو من باب قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ**﴾ [المائدة: ٢].

إذا كانت استعانة على برٍّ واجب كانت الاستعانة واجبة إذا كان لا يتم هذا الواجب إلا به، أو مندوبة إذا كان لا يتم المندوب إلا به.

وإذا كانت استعانة على أمر محرم كانت الاستعانة محرمة، وإذا كانت على أمر مكروه كانت الاستعانة مكروهة . . . وهكذا.

أما إذا كانت الاستعانة بمخلوق فيما لا يقدر عليه كالاستعانة بميت، فهذا هو الشرك والعياذ باللَّه، وهو ما أراده المؤلف الكلام عليه هنا.

وسر الاستعانة في الصلاة بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: أن العبد لا يستطيع أن يقوم بالعبادة -صلاة أو غيرها- على الوجه المطلوب بغير إعانة اللَّه، فكيف بغير العبادات من الأعمال الدنيوية . . . إلخ.

وقد أخرج النسائي في «الكبرى» (٦٤٨٢) بإسنادٍ حسن، وأصله في «الصحيح» من طريق آخر:

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كنا عند رسول اللَّه ﷺ إذ أتته وفد هوازن فقالوا: يا محمد، إنا أهل وعشيرة، وقد نزل بنا من البلاء ما لا يخفى عليك، فامنُنْ علينا منَّ اللَّه عليك، فقال: «**اخْتَارُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ أَوْ مِنْ نِسَائِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ**»، قالوا: خيَّرتنا بين أحسابنا وأموالنا، بل نختار نساءنا وأبناءنا، قال ﷺ: «**أَمَّا مَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ، فَإِذَا صَلَّيْتُ الظُّهْرَ فَقُومُوا فَقُولُوا: إِنَّا نَسْتَعِينُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ فِي نِسَائِنَا وَأَبْنَائِنَا**»، فلما صلوا الظهر قاموا، فقالوا ذلك، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**فَمَا كَانَ لِي وَلِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَهُوَ لَكُمْ**»، فقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ. وقالت الأنصار: ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ. وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن: أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال العباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا. فقامت بنو سليم فقالوا: كذبتَ، ما كان لنا فهو لرسول اللَّه ﷺ. قال رسول اللَّه ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ رُدُّوا عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ، فَمَنْ تَمَسَّكَ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ فَلَهُ سِتُّ فَرَائِضَ مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ يَفْتَحُهُ اللَّهُ عَلَيْنَا**...» الحديث.

وأصله في صحيح البخاري (٢٦٠٧) وفيه: «فسألوه أن يرد إليهم

أموالهم وسبيهم . . . » .

ففي رواية النسائي ما يدل على جواز الاستعانة بالمخلوق الحيِّ الحاضر فيما يقدر عليه مع تعلُّق القلب باللَّه تعالى ، فيكون من باب الشفعة أحيانًا ، أو من باب استيهاب الهبة ؛ أي : طلبها ، أو نحو ذلك ، وليس هو من باب الاستعانة الشركية التي هي طلب العون مع تعلق القلب بالمطلوب منه ، كما يفعل الجهال مع أصحاب الأضرحة المجاهيل ، أو مع الأموات .

وأما الحديث الذي ذكره المؤلف : «**وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ**» فأخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره بسندٍ ثابت عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ، فَقَالَ : «**يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**» .

فلتوحّد الاستعانة باللَّه تعالى .

والمقصود مما ذكره المؤلف : الحث على الاستعانة باللَّه وحده لا شريك له ، وعدم صرف ذلك لغير اللَّه .

وقد ذكر ابن القيم فائدة في «مدارج السالكين» (١/ ٩٦) فقال :

«الاستعانة تجمع أصلين : الثقة باللَّه ، والاعتماد عليه .

فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه ، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه ولعدم من يقوم مقامه ، فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به» . اهـ

فيستعان بالعبد بشرط أن يكون حيًّا قادرًا مع عدم الاعتماد عليه.

فالنصان اللذان ذكرهما المؤلف يدلان على أن الاستعانة عبادة، فمن صرفها لغير اللَّه تعالى فقد أشرك مع اللَّه.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]. وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]».

الشرح:

يعوذ: أي: يحتمي، والاستعاذة: طلب الحماية من المستعاذ به.

ذكر المؤلف آيتين من سورة الفلق والناس على أن الاستعاذة من العبادة.

وهاتان السورتان اللتان استدل المؤلف بهما قال رسول اللَّه ﷺ في شأنهما: «**مَا تُعُوِّذَ بِمِثْلِهِمَا**».

ولو ذكر قوله تعالى عن الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦] لكان حسنًا.

أما آية سورة الجن فإنها تدل على حرمة الاستعاذة بغير اللَّه، وأنَّ الاستعانة بغيره لا تغني عن المستعيذ شيئًا، بل الاستعاذة بغير اللَّه، -استعاذتهم بالجن- زادتهم خوفًا ورعبًا وهلعًا ورهقًا... وإن كان هناك نوع من الاستعاذة بالمخلوق جائزًا، يأتي بيانها إن شاء اللَّه.

أما الممنوع من الاستعاذة بالمخلوق منه، وهو الذي أراده المؤلف هي: الاستعانة المتضمنة لكمال الافتقار إليه والاعتصام به واعتقاد أن ذلك يكفي ويحمي من كل شيء حاضر أو مستقبل، صغير أو كبير، كالاستعاذة بالأموات.

وقد كان رسول اللَّه ﷺ يقول: «**مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ**

اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم السلمية.

• **وقد استعاذ النبي ﷺ بوجه اللَّه؛ فالاستعاذة تكون بأسماء اللَّه وصفاته:**

ففي «صحيح البخاري» (٤٦٢٨) من حديث جابر رضي الله عنه قال: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» قَالَ: ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قَالَ: «**أَعُوذُ بِوَجْهِكَ**» ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**هَذَا أَهْوَنُ -أَوْ- هَذَا أَيْسَر**».

• **واستعاذ رسول اللَّه ﷺ برضاه سبحانه من سخطه:**

ففي «صحيح مسلم» (٤٨٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**».

• **واستعاذ ﷺ بعزة اللَّه وقدرته:**

ففي «صحيح مسلم» (٢٢٠٢) عن عثمان بن أبي العاص الثقفي أنه شَكَا إلى رسول اللَّه ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ. وَقُلْ: بِاسْمِ اللَّهِ، ثَلَاثًا. وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ**».

● واستعاذ ﷺ بعظمة اللَّه:

ففي «مسند أحمد» (٤٧٨٥)، وأبي داود (٥٠٧٤) وغيرهما بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي، اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي**» قَالَ: يَعْنِي الْخَسْفَ.

وهو حديث صحيح.

● **وأما جواز الاستعاذة بمخلوق حي فيما يقدر عليه؛ فدليل ذلك:**

ما أخرجه مسلم (١٦٨٩) عن جابر رضي الله عنه: أَنَّ امرَأَة مِنْ بَنِي مَخزُوم سَرَقَتْ. فَأُتِي بِهَا النَّبِي ﷺ. فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَة زَوْجِ النَّبِي ﷺ. فَقَالَ النَّبِي ﷺ: «**وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ فَاطِمَة لَقَطَعْتُ يَدَهَا**» فَقُطِعَتْ.

والشاهد: قوله: «فَعَاذَتْ بِأُمِّ سَلَمَة» كأنها احتمت بها.

● **وقد يستعيذ المرء بالكعبة وغيرها من الأماكن والأعمال التي تحميه من الضرر:**

ودليل ذلك: ما أخرجه البخاري (٣٦٠١)، ومسلم (٢٨٨٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**سَتَكُونُ فِتَنٌ القَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ القَائِمِ، وَالقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ المَاشِي، وَالمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، وَمَنْ يُشْرِفْ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، وَمَنْ وَجَدَ مَلْجَأً أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ**».

وفي «صحيح مسلم» (٢٨٨٢) عن أمِّ سلمة رضي الله عنها عن رسول اللَّه ﷺ

قال: «**يَعُوذُ عَائِذٌ بِالْبَيْتِ. فَيُبْعَثُ إِلَيْهِ بَعْثٌ. فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنَ الأَرْضِ خُسِفَ بِهِمْ**». . . الحديث.

● **وينبغي على المسلم إذا استعاذ أحدٌ به أن يُعيذه؛ فمن حق المسلم على المسلم إغاثة الملهوف[1]، إلا إذا كان ثم تعاون على إثم وعدوان.**

ففي «صحيح البخاري» (٥٢٥٥) عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى انْطَلَقْنَا إِلَى حَائِطٍ يُقَالُ: لَهُ الشَّوْطُ، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى حَائِطَيْنِ، فَجَلَسْنَا بَيْنَهُمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْلِسُوا هَا هُنَا**» وَدَخَلَ، وَقَدْ أُتِيَ بِالْجَوْنِيَّةِ، فَأُنْزِلَتْ فِي بَيْتٍ فِي نَخْلٍ فِي بَيْتِ أُمَيْمَةَ بِنْتِ النُّعْمَانِ بْنِ شَرَاحِيلَ، وَمَعَهَا دَايَتُهَا حَاضِنَةٌ لَهَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «**هَبِي نَفْسَكِ لِي**» قَالَتْ: وَهَلْ تَهَبُ المَلِكَةُ نَفْسَهَا لِلسُّوقَةِ؟ قَالَ: فَأَهْوَى بِيَدِهِ يَضَعُ يَدَهُ عَلَيْهَا لِتَسْكُنَ، فَقَالَتْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ، فَقَالَ: «قَدْ عُذْتِ بِمَعَاذٍ» ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**يَا أَبَا أُسَيْدٍ، اكْسُهَا رَازِقِيَّتَيْنِ، وَأَلْحِقْهَا بِأَهْلِهَا**».

ولَأَنْ يُعاذ الرجل فيما هو غير ذلك من باب أولى.

واعلم أنَّ سورة الناس قد تضمَّنت أقسام التوحيد الثلاثة: الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، فـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ توحيد أسماء وصفات، وقوله: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ توحيد ربوبية، وقوله: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ يدخل في توحيد الألوهية.

---

(١) وفي «صحيح البخاري» (١٤٤٥)، ومسلم (١٠٠٨) أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ**» فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يَعْمَلُ بِيَدِهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ**» قَالُوا: فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ: «**يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ**» . . . الحديث.
وهذا من حق المسلم على المسلم، واللَّه الموفق.

وهذه أقسام التوحيد الثلاثة، وثم آيات أخرى جمعت الأقسام الثلاثة منها: قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥]، فأوَّلها يدل على توحيد الربوبية، وأوسطها يدل على توحيد الألوهية، وآخرها يدل على توحيد الأسماء والصفات.

ودليل آخر على هذا التقسيم: الاستقراء، كما بيَّنت في كتابي «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» (١/ ١٩٨).

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩]».

الشرح:

الاستغاثة: هي طلب الغوث، وهي الدعاء وقت الشدة التي يكون فيها القلب معلقًا ذليلًا ذلًّا كاملًا، ممتلئًا رجاءً ممن يدعوه، ولذلك كان صرف الاستغاثة لغير اللَّه شركًا، كمن يستغيث بالأحجار والأموات، ومن يدَّعون أنهم أولياء، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، ويعني بالظلم هنا: الكفر، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

فالابتغاء إنما يكون من اللَّه كما أمر سبحانه وقال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فدعاء غير اللَّه تعالى -فضلًا عن الاستغاثة به- من أكبر أو أكبر الضلال وأفحشه، ولا يجوز أن يُستغاث بمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا اللَّه.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وسبحان اللَّه عَزَّوَجَلَّ -الذي منه العطاء لا من غيره- يغضب إن تركت سؤاله، وابن آدم حين يُسأل يغضب! وليس هذا فحسب.

بل قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

فكيف يعبد المرء ويستغيث بالعاجز مع ظهور عجزه، ويترك القادر القدير المقتدر سبحانه مع غضبه عليه إن ترك سؤاله؟[١].

وفي مثل هؤلاء:

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢].

وانظر إلى استغاثة النبي ﷺ بربِّه مع معرفته أنه يُنجز له ما وعده:

ففي «صحيح مسلم» (١٧٦٣) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ**»، فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادًّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ، فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلَائِكَةِ... الحديث.

وفي رواية ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ وهو في قُبَّةٍ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ**» فَأَخَذَ أَبُو بَكْرٍ بِيَدِهِ فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَدْ أَلْحَحْتَ عَلَى رَبِّكَ وَهُوَ فِي الدِّرْعِ فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

(١) راجع «لمع الأدلة في بيان معتقد أهل السنة» (١/ ٢٠٦-٢٠٧).

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥-٤٦]. أخرجه البخاري (٢٩١٥).

هكذا لما استغاث رسول اللَّه ﷺ باللَّه، وقد قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ أي: في غزوة بدرٍ حين التقى بالمشركين فنصرهم على المشركين وكانوا أقل منهم بكثير، فانظر إلى آثار الاستغاثة به سبحانه.

وأما الحديث الذي فيه أن منافقًا كان يؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا نستغيث برسول اللَّه ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ**»، فهذا لا يصح له سند -فيما وقفت عليه- واللَّه أعلم.

وقد رواه أحمد (٢٢٧٠٦) من طريق ابن لهيعة، ولفظه: خرج علينا رسولُ اللَّه ﷺ فقال أبو بكر: قوموا نستغيثُ برسول اللَّه ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنافِقِ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**لَا يُقَامُ لِي، إِنَّمَا يُقَامُ لِلَّهِ**» وفي إسناده ضعف من قِبَلِ ابن لهيعة، ولم يرو عنه أحدٌ من العبادلة.

واللفظ الأول عزاه الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٥٩) وغير واحد للطبراني، وذكر أن فيه ابن لهيعة.

وهو مخالفٌ، فإن الاستغاثة بالمخلوق الحي القادر فيما يقدر عليه لرفع غشم أو ظلم أو ما يقدر عليه ليست من هذا الباب الشركي.

وقد قال سبحانه عن صاحب موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

ولو كان لا يجوز الاستغاثة بالمخلوق الحي القادر في مثل ذلك لأنكر عليه موسى عليه السلام، ولَمَا سارع في إجابته وإنقاذه.

فلابد في الاستغاثة والاستعاذة من التفرقة بين الحي والميت، وبين ما يقدر عليه وبين ما لا يقدر عليه.

● قال المؤلف رحمه اللَّه تعالى- :

«وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢،١٦٣].

وَمِنَ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ».».

الشرح:

مضمون الآية: أن الصلاة والذبح وما أحيا عليه في حياتي وما أموت عليه للَّه رب العالمين.

الذبح الشركي الذي يقصده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: الذبح لشخص ميت أو وليٍّ أو ما شابه ذلك على سبيل التعظيم للمذبوح له.

وهذا شركٌ لعن اللَّه من فعله؛ لأن الذبح عبادة كالصلاة لا يجوز صرفها لغير اللَّه تعالى، لقول عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ: «**لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ**» أخرجه مسلم (١٩٧٨) في «صحيحه».

ومعنى اللعن: أي: الطرد والإبعاد من رحمة اللَّه.

وهذا الحديث الذي ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

فيه لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه، دل على أن الذبح عبادة لا تصلح إلا له.

أما إذا كان المرء يذبح ليكرم ضيفه لا تعظيمًا للمذبوح له، فالمرء يذبح وليمة للعرس، ويذبح ليكرم ضيفه، ويذبح ليُطعم أهله، أو يذبح ليأكل، فقد قال رسول اللَّه ﷺ لعبد الرحمن بن عوف لمَّا تزوَّجَ: «**أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ**».

أخرجه البخاري (٢٠٤٨)، ومسلم (١٤٢٧).

فما كان من ذبح عادةٍ لا يكون شركًا بخلاف ما كان الذبح فيه عبادة، واللَّه الموفق.

ولما ذهب رسول اللَّه ﷺ ومن معه فأتوا رجلًا من الأنصار، فلما جاء الأنصاري فنظر إلى رسول اللَّه ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمُ أَضْيَافًا مِنِّي . . فانطلق وأخذ المُدْيَةَ، فقال له ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**» فذبح لهم فأكلوا من الشاة . . الحديث. أخرجه مسلم (٢٠٣٨).

فأحيانًا يكون سبيل إكرام الضيف بالذبح ليأكل، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ...**».

أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فالمقصود: أن الذبح على وجه التعظيم للمذبوح له عبادةٌ صَرْفُها لغير اللَّه شركٌ، وصاحبها ملعون.

أما الذبح لغرض شرعي لمثل وليمة أو إطعام أو إكرام ضيف أو إطعام أهل أو ما شابه ذلك، فهو جائز لا بأس به ما لم يكن إسرافًا أو لإحياء بدعة أو ما شابه ذلك.

والآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله: النسك فيها أي: الذبح، فمعنى ﴿وَنُسُكِي﴾: أي: ذبيحتي، ومعنى ﴿وَمَحْيَايَ﴾ أي: أمور حياتي كلها.

وقوله تعالى في الآية: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢- ١٦٣] معنى: «أنا أول المسلمين»: أي: أول الممتثلين المبادرين لأوامر ربِّ العالمين، لا أن رسول اللَّه ﷺ أول من كان مسلمًا.

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]».

الشرح:

النذر: هو إلزام المكلف نفسه شيئًا ليس بواجب تعظيمًا للمنذور له وتقرُّبًا إليه، والشرعي ما كان للَّه، والشركي ما كان لغير اللَّه، هذا هو المقصود هنا.

● **قوله: «وَدَلِيلُ النَّذْرِ»:**

أي: دليل أنه عبادة.

قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ﴾ جاءت في موطن الثناء... سواء كان نذرًا مطلقًا أو مقيدًا.

«ووجه الدلالة من الآية: أن اللَّه أثنى عليهم لإيفائهم النذر، وهذا يدل على أن اللَّه يحب ذلك، وكلُّ محبوب للَّه من الأعمال فهو عبادة، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]»[1].

وإن كان من النذر ما هو مكروهٌ نذرُه؛ كمن نذر: لئن فتح اللَّه عليَّ بكذا لأفعلنَّ كذا. (يلتزم بعبادة معينةأو عطاء معين) وهو النذر المعلَّق، فقد نهى النبي ﷺ عنه وقال: «**إِنَّهُ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**» أخرجه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

واستدل به على التحريم، والصواب: الكراهة؛ لأن الآية ﴿يُوفُونَ

---

(١) من كلام الشيخ العثيمين في «شرح الأصول الثلاثة» (ص٥١).

﴿بِٱلنَّذۡرِ﴾ جاءت في موطن الثناء لا الذم، فالوفاء به من صفات الممدوحين لا المذمومين، واللَّه الموفق.

وفي رواية مسلم (١٦٣٩) أنَّ النبيَّ ﷺ نهى عن النَّذْرِ وقال: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرِجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**»، أي: أن هذا النذر ليس سببًا في حصول الخير لك، وإنما سُمي بالبخيل لأنه لا يتطوع للَّه من قِبَلِ نفسه، بل لابد من عقد الصفقة فيما بينه وبين ربِّه، وهكذا البخيل لا يفعل إلا إذا فُعل له بخلاف الكريم.

ومع ذلك إذا نذره الإنسان وجب الوفاء به إلا إذا نذر نذرًا محرمًا فلا يفي به، فإن كفارته كفارة يمين ويحرم الوفاء به، لقوله ﷺ: «**مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلَا يَعْصِهِ**» أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

ومن نذر نذرًا لم يُطقه فكفارته كفارة يمين: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يُطعم منه الأهل أو كسوتهم أو تحرير رقبة مؤمنة، فإن عجز صام ثلاثة أيام، وأدلة ذلك في مباحث الأيمان تراه مبسوطًا في كتب الفقه ليس هنا موطن الإسهاب فيه، واللَّه الموفق.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي: منتشرًا.

وقد أراد المؤلف مما تقدم بيان أن النذر والاستغاثة والاستعاذة والدعاء والتوكل و... هذه عبادات لا يجوز صرفها لغير اللَّه وصرفها لغير اللَّه شرك كفر.

وإذا نذر وجب عليه الوفاء به سواءً كان مطلقًا أو معلقًا.

هكذا انتهى المؤلف من الأصل الأول من الأصول الثلاثة، وهو: معرفة اللَّه تعالى، وتعرَّض لبعض العبادات التي لا يجوز صرفها لغير اللَّه تعالى، ودلَّل على كل ذلك، وزدنا ذلك وضوحًا وتدليلًا، فالحمد للَّه.

ثم شرع في بيان الأصل الثاني.

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ:

وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ».

الشرح:

● قوله: «مَعْرِفَةُ دِينِ...»:

المعرفة ترادف العلم في حق المخلوق، فالعالم والعارف من الإنس سواء، ولكن اللَّه سبحانه لا يُطلق عليه العارف لعدم وروده في حق اللَّه عالم الغيب والشهادة، وقد أشرنا في غير موطن أن الأسماء الحسنى توقيفية لا يُطلق على اللَّه منها شيء إلا بتوقيف، فيقال: اللَّه عالم، ولا يقال: عارف.

والأصل الثاني من الأصول الثلاثة التي سيُسأل عنها الميت في قبره: «**مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ**»، والإسلام المقصود به هنا: ما جاء به محمد ﷺ.

وعدم معرفة الشخص الدين ربما أدى به إلى الوقوع في ناقض من نواقض دين الإسلام وهو لا يشعر.

ثم عرَّف المؤلف الإسلام فقال:

«وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ».

الاستسلام هنا: الاستسلام الشرعي لا الكوني.

وقد قلنا قبل: إن من في السموات ومن في الأرض أسلموا طوعًا أو كرهًا استسلامًا كونيًّا.

ولكن ليس هذا هو المطلوب، وإنما المطلوب: الاستسلام الشرعي، الذي هو الانقياد التام للأوامر والنواهي الشرعية، الذي ينتج عنه الطاعة امتثالًا، والبراءة من الشرك، وترك المعصية امتثالًا.

ومقصود المؤلف من كلمة «الاستسلام»: بيان المقصود وهو: الاستسلام الشرعي للَّه تعالى، وهو تنفيذ الأوامر واجتناب النواهي بلا اعتراض ولا مقايسة ولا تقديم عقل على نقل . . .، وتحقيق التوحيد كما أمر اللَّه تعالى، وليس المقصود «تحقيق الاستسلام الكوني» الذي هو مُحَقَّق سواء رضي الإنسان أم لا، بمقتضى قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهًا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وما ذكره المؤلف قد ذكره اللَّه تعالى فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦].

واجتناب الشرك شرطٌ في صحة العبادة، فمن أشرك في عبادته فلا يُقال: عَبَدَ اللَّه.

- **وقول المؤلف**: «**وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ**»:

يعني: البراءة منهم في الاعتقاد والعمل، بل من خصالهم كلها، فلا يتشبَّه بهم.

ولذلك نهى رسول اللَّه ﷺ عن التشبُّه بهم فقال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**» وقد أخرجه أبو داود (٤٠٣٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسنادٍ جوَّده ابن تيمية في «الفتاوى» (٢٥/ ٣٣١)، وصحح إسناده العراقي في «تخريج الإحياء» برقم (٨٥١).

وحذَّر ﷺ من ذلك أيضًا حينما قال: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ؟**». أخرجه البخاري (٣٤٥٦).

ونهى رسول اللَّه ﷺ رجلًا أن يذبح في مكان إن كان في هذا المكان وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد، أو عيدًا من أعيادهم يُقام، كما عند أبي داود (٣٣١٣) بسندٍ ثابتٍ . . .

والمقصود من البراءة من الشرك وأهله: ألا يُصادق أهلَ الشرك، فلا يتخذ منهم أولياء، لا يواليهم ولا يتودَّد إليهم، ولا يُجالسهم إلا بقدر الضرورة إذا كان؛ لأن الإسلام والكفر نقيضان لا يجتمعان في شخص واحدٍ أبدًا.

وهذا الإسلام له مراتب وأركان.

ثم شرع المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان مراتبه وأركانه.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ».

الشرح:

بيَّن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن الإسلام ثلاث مراتب: مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان.

والدليل على ما قال: ما أخرجه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولفظ البخاري:

قال أبو هريرة: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**» قَالَ: مَا الإِسْلَامُ؟ قَالَ: «**الإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ**» قَالَ: مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ** ...» الحديث.

وفي آخره قال للصحابة: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**».

فجعل ذلك هو الدين، وسيذكر المؤلف هذا الحديث بعد مستدلًّا به على ذلك، وهذا موطن الشاهد: أن جعل مراتب الدين الثلاثة في الإسلام والإيمان والإحسان.

فهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل اللَّه من أحدٍ سواه، كما قال:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فمن سمع بهذا الدين من الملل وفهم ولم يؤمن بما أُنزل على رسول اللَّه ﷺ كان من أصحاب النار.

وهذا التقسيم الذي قسمه المؤلف قد أخذه من الحديث المذكور، فلا يجوز الزيادة على هذا التقسيم عند ذكر مراتب الإسلام، فإنها الدين كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ لِيُعَلِّمَكُمْ دِينَكُمْ**».

فمن زاد على ذلك فقد انحرف، ولا يقبل منه ما زاده، واللَّه الموفق.

● وقوله: «**وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ**»:

أي: كل مرتبة من المراتب الثلاث [التي هي الإسلام، والإيمان، والإحسان] لها أركان.

كيف ساغ للمؤلف أن يقول عن هذه المراتب الثلاث لها أركان، مع أن الإحسان ليس إلا ركنًا واحدًا كما سيذكر المؤلف؟

الإسلام له مراتب خمسة، والإيمان له مراتب ستة، لكن الإحسان ليس إلا مرتبة واحدة.

فكيف ساغ له أن يقول عن المراتب لها أركان ومنها [وهو الإحسان] ما ليس له إلا ركن واحد؟ وأقل الجمع ثلاثة -على الراجح في اللغة-؟

والجواب -واللَّه أعلم-: أنه قال ذلك من باب التغليب.

ثم شرع المؤلف يبين أركان الإسلام وأركان الإيمان، ويفصِّل في أركان هذه المراتب.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ».

الشرح:

دليل هذه الأركان حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

وهو حديث صحيح أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

● وقوله: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّه**»:

عدَّهما واحدة مع أنهما شقان؛ لأنه لا تجزئ إحداهما عن الأخرى.

وكأن من قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» عند الموت كأنه قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّه».

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**» أخرجه مسلم (٩١٧)، لم يقل: لقنوا موتاكم لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه.

وقال: «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**».

وهو حديث قوي لشواهده، خرجته في كتابي «جامع أحكام الميت» (١/ ٥١).

وقد لقن النبي ﷺ عمَّه أبا طالبٍ فقال: «**يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ**» أخرجه البخاري (١٣٦٠).

ولقن الغلام اليهودي الكلمة لما عاده فقال له: «**قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، أَشفَعُ لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ...» فقال: أشهدُ أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه، فقال ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ**» أخرجه ابن حبان (٢٩٦٠) بإسنادٍ صحيح، وأصله في «صحيح البخاري» (١٣٥٦)، ولفظه: «**فَأَسْلَمَ**».

فهذا مشهور مفهوم كلاهما شهادة واحدة تدل إحداهما على الأخرى.

ولقن رجلًا من الأنصار فقال: «**يَا خَالُ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**»، قال: فخيرٌ لي أن أقولَ لا إله إلا اللَّه؟ قال: «نَعَمْ» أخرجه أحمد (٣/ ١٥٤) بإسنادٍ صحيح.

وقالت عائشة رضي الله عنها: «**لَا تَذْكُرُوا مَوْتَاكُمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَقِّنُوهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ**» أخرجه عبد الرزاق (٦٠٤٢) وغيره بسندٍ صحيح.

وقال علقمة: «لَقِّنُوني لا إله إلا اللَّه عند موتي» أخرجه عبد الرزاق (٦٠٤٣) بسندٍ صحيح.

والحاصل: أن المقصود من لا إله إلا اللَّه هنا؛ أي: لا إله إلا اللَّه المتضمنة لشهادة أن محمدًا رسول اللَّه، فمن لقن الميت لا إله إلا اللَّه دلَّ عليهما، وإذا قال الميت لا إله إلا اللَّه كأنه قالهما.

فهما ركن واحد إذا ذكرت إحداهما دلَّت عليهما لكونهما ركنًا واحدًا، فلذا عُدَّت واحدة هنا، فشهادة «أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه» واحدة كما في الحديث، وكما في كلام المؤلف رحمه الله.

ثم شرع المؤلف -رحمه اللَّه تعالى- في بيان دليل كل ركن من الأركان المذكورة.

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران، ١٨]».

الشرح:

● **قوله تعالى**: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾...

في هذه الآية منقبة لأهل العلم، لكون اللَّه تعالى قد قرن شهادتهم بشهادة الملائكة مع شهادته سبحانه.

كل هؤلاء يشهدون أن لا إله إلا هو، وأنه سبحانه قائم بالقسط؛ أي: العدل، فالشاهد: هو اللَّه والملائكة وأولو العلم، والمشهود عليه: أنه لا إله إلا هو، وأنه عزيز حكيم.

فهذا شرف لأهل العلم عظيم ومنقبة لهم، تحمل الناس على السعي لطلب العلم لبلوغ هذه المنزلة العليَّة العظيمة.

والمقصود بالعلماء هنا: أي: العلم الشرعي، فهو الذي ينصرف إليه اللفظ مباشرة، فجميع مدائح العلم في الكتاب والسنة المقصود بها العلم الشرعي لا غير، وغيره يتبعه على حسب النوايا، لأن اللَّه تعالى قرن شهادته بشهادة الملائكة بشهادة أهل العلم، وما ذلك إلا لفضلهم.

والرسل -عليهم الصلاة والسلام- داخلون في ذلك دخولًا أوليًّا.

ومن الأدلة على الشهادة أيضًا: قوله ﷺ: «**مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ دَمُهُ وَمَالُهُ**». أخرجه مسلم (٢٣).

فمن قالها يلزمه أن يكفر بما يعبد من دون اللَّه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وإلا فلا تنفع قائلها إن قالها بغير الكفر بما يعبد من دون اللَّه.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللَّهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنَ الإِثْبَاتِ (لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ (إلا اللَّهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ».

الشرح:

● قوله: «وَمَعْنَاهَا»:

أي: معنى شهادة أن لا إله إلا اللَّه، أنها تتكون من عبارتين:

أولاهما: «لَا إِلَهَ» نفي لجميع الآلهة.

ثانيهما: «إِلَّا اللَّهُ» إثبات الألوهية للَّه وحده دون غيره، فلا يعبد إلا اللَّه.

فمعنى «لا إله»: أي: لا معبود (لا كما يقول الضلال: لا رب)، والتألُّه: التعبُّد، فكما أنه سبحانه لا شريك له في ملكه، فهو الذي خلق فسوى وقدَّر فهدى . . . فكذلك هو ينبغي أن تكون العبادة له وحده؛ لأنه هو المستحق لها، وهذا معنى قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ».

فيستدل بتوحيد الربوبية على انفراده باستحقاق العبادة.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٥-٦].

فانفراده سبحانه بالربوبية يلزم العابد بإفراده بتوحيد الألوهية وعبادته وحده لا شريك له، وهذا كثير في القرآن الكريم.

وقوله: «**لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ**»: احتراز؛ فإن من الآلهة ما تعبد: كالأصنام والأولياء والملائكة والجن و... لكنها ليست بحق، فاحتُرز من ذلك، فزاد كلمة: «بِحَقٍّ».

وعبادتهم لها عبادة باطلة، كما وصف اللَّه بعضها فقال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

ومآل حالهم كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

وقد أرسل اللَّه الرسل جميعًا بهذا: أن تكون العبادة للَّه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

- **وكلمة لا إله إلا اللَّه لها شروط:**

العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والقبول، والكفر بما يُعبد من دون اللَّه.

لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولابد مع قول (لا إله إلا اللَّه) اعتقاد معناها، وإلا فلم تنفع المنافقين هذه الكلمة، بل قال اللَّه عنهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، مع قولهم لها في زمن رسول اللَّه ﷺ، فلا يكفي التلفظ بالشهادة وحده.

وأما اليقين: فهو المنافي للشك:

لقوله ﷺ: «**أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ**». أخرجه مسلم (٢٧).

واليقين: يعني: عدم التردد أو الشك أو الريبة أو القلق في داخله، بمعنى: السكون إلى هذا الاعتقاد، مطمئن القلب بذلك، فيكون مصدقًا بثوابها مخلصًا من قلبه.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «...**مَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**». أخرجه مسلم (٣١).

وبقية شروط (لا إله إلا اللَّه) معنًى وأدلةً وتفسيرًا، راجع كتابي «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» (١/ ٢١٧) وما بعدها.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٦- ٢٨].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]».

الشرح:

● قوله: «وَتَفْسِيرُهَا» توضيحها:

أي: تفسير (لا إله إلا اللَّه)، مثال العمل بها: فعل إبراهيم عليه السلام حيث جعل مفارقة بينه وبين عبدة الأصنام، وتبرأ مما يعبدون، وهي معنى «لا إله» فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وأثبت العبادة له وحده فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾.

فعلى كل إنسان أقرَّ بالربوبية للَّه أن يقرَّ بالعبودية له وحده، ويتبرأ مما يُعبد من دون اللَّه، كما فعل إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء.

وتفسير (لا إله) بمعنى: لا قادر أو لا حاكم؛ قصور في تفسيرها، بل ضلال يؤول إلى تكفير المجتمعات؛ لأن الحكم داخل في العبودية والألوهية، والكفار قد فهموا معنى الآية حينما قيل لهم أنا يقولوا لا إله إلا اللَّه قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]. . !

ومعنى قوله عليه السلام: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: أي: خلقني على الفطرة،

خلقني ابتداءً.

ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾: أي: سيدلني على الحق ويوفقني إليه.

وقوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: جعل إبراهيم عليه السلام الكلمة التي قالها التي تدل على براءته منهم ومما يعبدون جعلها في ذريته، أو أنها كلمة التوحيد جعلها باقية في دعوته في نسله ﷺ، ولذا قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وأما الآية الثانية:

فهي حجة عقلية دامغة، وإلزام لأهل الكتاب إلى أصلٍ لا يخالف فيه عاقل مكلَّف، ويقبله كل باحث عن الحق، كلمة سواء تلزمنا وتلزمكم، ألا نعبد إلا اللَّه ولا نشرك به شيئًا، ولا يعظم بعضنا بعضًا كتعظيم العبد للمعبود، فيُطاع في معصية اللَّه طاعةَ العبادة.

فإذا أعرضوا عن هذا فأعلموهم وأشهدوهم أنكم مستسلمون للَّه، لا تعاندون، حتى يحكم اللَّه بيننا وبينكم.

والمؤلف ذكر هذه الآية لتكون تفسيرًا عمليًّا من رسول اللَّه ﷺ لتوحيد العبادة، وجعلها للَّه وحده، ويلتزم هو بها، لعلهم يرجعون عن شركهم إلى توحيد اللَّه.

فكما فعل إبراهيم عليه السلام وجعلها كلمة باقية (وهي كلمة التوحيد) جعلها محمد ﷺ كذلك.

فالآية الثانية تفسير وتطبيق عملي من محمد ﷺ إلى قومه، كما فعل إبراهيم عليه السلام مع قومه، سواءً بسواء.

ثم ذكر الآية الثانية التي فيها أن كلمة التوحيد كلمة واحدة خفيفة على اللسان، وفيها دعوة أهل الكتاب بالحكمة والموعظة الحسنة.

﴿تَعَالَوْا﴾: أي: هلموا.

﴿سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾: أي: كلمة عدل نستوي نحن وأنتم فيها.

كلنا يعمل بها لا تنكرها العقول ولا الشرائع.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: أي: نوحِّد اللَّه نحن وأنتم بالعبادة، ولا نشرك به في قليل ولا كثير ﴿شَيْـًٔا﴾: صليب، صنم، شجر، حجر، طاغوت... إلخ، ولا نشرك باللَّه بقدرٍ يسير، عظيم، كبير... إلخ.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: يدل على ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾، فلماذا كرَّر ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾ والآية الأولى تدل عليها؟

ذلك -واللَّه أعلم- للتأكيد على أهميتها، وزيادة التحذير من الوقوع فيها؛ أي: من باب عطف الخاص على العام لأهميته.

وقوله: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾: أي: لا يطيع بعضنا بعضًا في معصية اللَّه، فإن طاعة الإنسان في معصية اللَّه شيء خطير.

وقد قال اللَّه تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١]، مع أنهم ما سجدوا لهم وما ركعوا لهم، وإنما أطاعوهم في تحليل الحرام وفي تحريم الحلال وهم يعلمون، واللَّه الموفق.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أي: امتنعوا.

فقولوا: إنا مسلمون فاشهدوا أنا كذلك من دونكم، فأنتم كفار وإن متم على هذا كنتم من أهل النار، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ**

بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». أخرجه مسلم (١٥٣).

فبعد إرسال محمد ﷺ إما أن يكون الإنسان مؤمنًا به، وإما أن يكون كافرًا من أهل النار، لا تقريب بينهم، مسلم وكافر، واللَّه المستعان على الضلال الذي يقال عليه: «تقريب الأديان»، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥] فالدين عند اللَّه الإسلام.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَدِليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]».

الشرح:

● قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾:

هي حجة ملزمة فلو كان من غيرهم لقالوا: لا نعرف أصله وصدقه وأمانته وعفافه. . . .

لكن هو من أنفسهم لئلا يكون لهم حجة في عدم طاعته واتباعه، من جنسكم، من بينكم، من أقاربكم، أو من أقارب إخوانكم، سكن معكم، تربَّى فيكم، كنتم تلقِّبونه قبلُ بالصادق الأمين.

وهي كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

فقوله تعالى: ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ هي كقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، هي كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠]. قال: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾.

وهي الحجة الملزمة التي أقنعت النجاشي بقبول رسالة جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففي «مسند أحمد» (١/ ٢٠١-٢٠٣) وغيره بإسنادٍ حسن عن أمِّ سلمةَ قالت: لَمَّا نَزَلْنَا أَرْضَ الْحَبَشَةِ جَاوَرْنَا بِهَا خَيْرَ جَارٍ النَّجَاشِيَّ أَمِنَّا عَلَى دِينِنَا وَعَبَدْنَا اللَّهَ لَا نُؤْذَى وَلَا نَسْمَعُ شَيْئًا نَكْرَهُهُ . . .

قال جعفر للنجاشي[١]: أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا . . قال: «رسولًا منَّا».

وأسلم النجاشي رضي الله عنه.

وكذلك هرقل لما سأل أبا سفيان بن حرب أراد أن يسأل عن رسول اللَّه ﷺ رجلًا منهم، ولذا قال: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فكان أبو سفيان بن حرب فسأله[٢].

فقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ في سياق الإخبار عن رسول اللَّه ﷺ فصاحة وبيان الحجة في سياق الإخبار.

ولذا ينادون يوم القيامة ويُسألون: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. ﴿مِّنكُمْ﴾.

بل قال تعالى مشيرًا إلى هذا المعنى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فقوله: ﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾: دليل على المراد.

---

(١) ملك الحبشة.

(٢) والحديث بطوله في «صحيح البخاري» (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم: ٤].

وذلك لانقطاع حججهم إذا قدموا على ربِّهم.

● **وقوله تعالى**: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾:

أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعنتكم.

﴿حَرِيصٌ عَلَيۡكُم﴾: يحب لكم الخير ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه، بخلاف الكفار، فإنه ﷺ مأمورٌ بالغلظة عليهم وجهادهم، هم والمنافقين.

﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم، ولهذا كان حقه مقدَّمًا على سائر حقوق الخلق وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره، فإن آمنوا فذلك حظُّهم وتوفيقهم، وإن تولوا عن الإيمان والعمل، فامضِ على سبيل ولا تزل في دعوتك[1].

ويفهم من ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ أي: بالكافرين شديد غليظ.

نعم لقد جاء رسول اللَّه ﷺ بالحنيفية السمحة، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وفي قول عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «مَا خُيِّرَ رسولُ اللَّه ﷺ بينَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسَ مِنْهُ...» الحديث. أخرجه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

ولذلك قال رسول اللَّه ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ**

(١) من تفسير السعدي رحمه الله بتصرف.

وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أخرجه مسلم (٤٤).

* وثم دليل آخر يُضاف إلى ما قاله المؤلف:

وهو قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ . . .﴾ [الفتح: ٢٩] الآية.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللَّهُ إِلا بِمَا شَرَعَ».

الشرح:

ما معنى أن تشهد أن محمدًا رسول اللَّه ثم أنت لا تطيعه فيما أمر ولا تنتهي عما نهى عنه وزجر؟

ما معنى شهادة أن محمدًا رسول اللَّه إذا كان القائل لها يعبد اللَّه على هواه وعلى حسب ما يحلو له، كما يفعل كثير من الصوفية وبقية أهل البدع؟

وقد قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧].

وقال ﷺ: «**إِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**».

أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

فيقال للواحد من أهل البدع: قال رسول اللَّه ﷺ، ويقول: قال الشيخ فلان، لو عارض وقال: «قال أبو بكر وعمر»، لقيل له ما قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «أَرَاهُمْ سَيهْلِكُونَ أقولُ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ، ويَقُولون: قال أبو بكر وعمر؟»وقد خرجته في غير هذا الموطن، فكيف لو رأى ابن عباس رضي الله عنهما زماننا، ويقال للواحد قال رسول اللَّه ﷺ فيقول: قال الشيخ فلان -ولعله شيخٌ-، لو رآهم ابن عباس ماذا كان يقول لهم؟! واللَّه المستعان.

ورسول اللَّه ﷺ يقول في شأن الحج: «**لِتَأْخُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**» أخرجه

مسلم (١٢٩٧)، وفي الصلاة: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**» أخرجه البخاري (٦٣١).

وصلى رسول اللَّه ﷺ على المنبر ثم قال: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا بِي وَلِتَعْلَمُوا صَلَاتِي**» أخرجه البخاري (٩١٧)، ومسلم (٥٤٤).

وقال ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ**» أخرجه مسلم (١٧١٨) عن عائشة رضي الله عنها.

وما فائدة إرسال الرسول إذا كنا لا نأتم به، ولا نعبد اللَّه كما عبد هو ﷺ؟!

فشهادة المرء بأن محمدًا رسول اللَّه يستلزم منها: طاعته، وتصديقه، وأن نأخذ منه طريقة العبادة، وما شابه ذلك، كل ذلك بما علَّمنا إياه ﷺ.

ومن ذلك أيضًا: أَلَّا نعتقد له ﷺ أمورًا اعتقادها من الغلو؛ كمن يعتقد أنه ﷺ يعلم الغيب، أو أنه مَلَك، أو نصرف شيئًا من العبادة له، أو تعظيمه فوق ما شُرع له ﷺ.

فلا يُعبد إلا اللَّه، ولا يُعبد إلا بما شرع على لسان رسوله ﷺ.

فمع النطق بشهادة أن محمدًا رسول اللَّه ﷺ العمل بمقتضاها.

فرجلٌ يقول: محمد رسول اللَّه، ثم يقال له: قال رسول اللَّه في أمرٍ ما، وهو يقول: قال الشيخ فلان... ما هذا؟!

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الصَّلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]».

الشرح:

أي: دليل أن الصلاة والزكاة من الدين عبادة كونهما من مباني الإسلام الخمسة: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، فالصلاة عبادة البدن، والزكاة عبادة المال، ودائمًا يقرن بينهما في كتاب اللَّه، لهذا المعنى.

وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.

قال تعالى: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣] . . . وهكذا.

وحديث «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ...**» مشهور.

والآية تحث على الإخلاص في العمل، وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾: دليل على أن الكفار ما أمروا إلا بإخلاص العبادة للَّه تعالى، فكفروا وأشركوا باللَّه تعالى.

وقد ورد عن ابن عباس أنه قال: «ما أُمروا في التوراة والإنجيل إلا بالإخلاص في العبادة للَّه موحِّدين».

وهو وإن لم أقف له على سندٍ صحيح إلا أن المعنى صحيح، كما تدل عليه الآية، واللَّه أعلم.

ومعنى ﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مائلين عن الشرك.

ومعنى ﴿دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾: أي: الملة القويمة التي لا اعوجاج فيها.

وإنما خص اللَّه تعالى في الآية الصلاة والزكاة من دون سائر العبادات لكونهما أعظم أركان الإيمان بعد الشهادتين.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَدَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]».

الشرح:

الصيام: هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، ويأتي الصيام بمعنى الامتناع عن الكلام كما في قول مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

﴿كُتِبَ﴾: أي فرض، فالآية دليل على فرضيته.

فالصيام فرضٌ علينا، كما كان مفروضًا على الذين من قبلنا، فدل على أن هذه الأمة لم يُفرض عليها وحدها الصيام، ودل على أن الصيام يهذِّب النفس، ويحمل المرء على التقوى والإخلاص كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ**» أي: وقاية. أخرجه البخاري.

وقد أرشد من لم يجد الباءة بالزواج فقال ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» أخرجه البخاري ومسلم، فهو يتذكر الإنسان الجائع، ويتدرَّب به على الصبر، والمراقبة للَّه في السر كالعلن.

وهو ما يحمل المرء على ترك الزور والعمل به.

وقد قال ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ**». أخرجه البخاري (١٩٠٣).

وللصيام فوائد غير هذه حيث يضيق على الشيطان مجراه، فهو -أعني:

الشيطان- يجري من ابن آدم مجرى الدم.

وثَمَّ فوائد طبية أخرى يتكلَّم عليها الأطباء.

والآية تدل على فرضية الصيام علينا وعلى الذين من قبلنا، والتشبيه في ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تشبيه الفرضية بالفرضية، أما كيفية الصيام وأحكامه فإن اللَّه تعالى يقول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

وشروط وجوب الصيام: البلوغ والعقل، وأن يكون مقيمًا غير مسافر، سليمًا غير مريض مرضًا يمنعه من الصيام، والمرأة إذا كانت طاهرة غير حائض ولا نفساء، فمتى رؤي هلال رمضان ينوي الصيام، ومتى رؤي هلال شوال يفطر الصائم، لعموم قوله ﷺ: «**صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ، فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلَاثِينَ**» أخرجه البخاري ومسلم.

ولا صوم يجب إلا رمضان، اللَّهم إلا إذا كان نذرًا أو كفارةً وجب فيها الصيام.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]».

الشرح:

الآية دليل على أن الحج من الدين.

وفيه: وجوب الحج على المستطيع، وثَمَّ أدلة أخرى فيها دليل على رفق اللَّه بنا إذ لم يكلِّفنا بما يشق علينا، إذ لا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها.

وقوله تعالى بعد الأمر بالحج: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليل على كفر من ترك الحج وهو مستطيع جحودًا.

وإذا لم يكن جحودًا هل هو كفرٌ مخرج من الملة أو كفرٌ دون كفر؟

الصواب: أنه كفرٌ غير مخرج من الملة، لقول عبد اللَّه بن شقيق: «لم يكن أصحاب رسول اللَّه ﷺ يرون شيئًا من الأعمال في تركها كفرٌ غير الصلاة».

وهو صحيح، خرجته في كتابي «التوضيحات الجلية في بيان عقيدة أهل السنة».

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف دليل على مسألة أصولية، وهي: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة وبأصولها.

لأن اللَّه تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ ولفظ (الناس) عام يشمل المسلم والكافر، والكافر إذا حج لا يصح منه الحج حتى يأتي بأصل الإسلام وهو الشهادتين، أو مباني الإسلام، فدل على أن هذا وذاك

مطلوب منه فروع الإسلام وما لا يصح منه الفرع إلا به وهو أصل الإسلام، وقد قال تعالى عن الكفار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٢-٤٣]، مع أنهم لو صلوا بدون أن يأتوا بأصل الإسلام لا يصح منهم، وتحرير مثل هذه المسائل في كتب الأصول، واللَّه الموفق.

● **وقوله تعالى**: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ﴾:

أي: ومن تركه جحودًا لا مَنْ تركه يُسوِّف حتى ضاعت عليه الفرصة، فإن من تركه وهو قادر عند من يقول بوجوب الحج على التراخي فلا ذنب عليه، أما من تركه وهو قادر فهو آثم عند من يقول بوجوب الحج على الفور.

أما من استحل ترك هذه الفريضة فإنه يكون كافرًا لأنه استحل ما حرَّم اللَّه، واللَّه المستعان.

وفيه تفريعات تجدها في مظانها من كتب الفقه في باب الحج.

وبذلك يكون المؤلف قد انتهى من ذكر أركان الإسلام الخمسة وأدلتها ثم شرع رَحِمَهُ اللَّهُ في المرتبة الثانية وهي الإيمان.

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ: الإِيمَانُ:

وَهُوَ: بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ».

الشرح:

شرع المؤلف في ذكر الإيمان فذكر أن له شُعَبًا.

والإيمان: هو الإقرار المتضمن للعمل، وإذا أُطلق عنى الدين كله، وإذا اقترن بالإسلام دل كل منهما على التفصيل الذي في حديث جبريل: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وِشَرِّهِ**» كما في آية البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلخ، وهو بالقلب واللسان والجوارح.

والإسلام يدل عند اقترانه بالإيمان على الأعمال الظاهرة.

● وقول المؤلف -رحمه اللَّه تعالى- عن الإيمان: «**بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً...**» إلخ:

هو قول رسول اللَّه ﷺ: «**بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ**». أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، ولفظه: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَة؛ فَأَفْضَلُهَا: قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا: إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَة مِنَ الإِيمَانِ**».

وكأن المؤلف يشير إلى أن الإيمان قولٌ وعملٌ يزيد وينقص.

واللَّه تعالى قد عرَّف الإيمان فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ

قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢-٣].

فدل هنا الإيمان على الأعمال الظاهرة والباطنة، ودل على أن المؤمن من اتصف بالأعمال الظاهرة والباطنة والأعمال الظاهرة أعمال الجوارح.

وللإيمان شُعبٌ، وكل ما يُطاع اللَّه به من فريضة ونافلة فهو من الإيمان، كما قال ابن عبد البر.

وهذه الشُّعب لا تخرج عن الكتاب والسنة، فعلى العبد امتثال أوامرها واجتناب زواجرها وتصديق أخبارها والعمل بسننها، فمن استكمل هذه الشعب فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، كما قال عمر بن عبد العزيز كما في «الإيمان» لابن أبي شيبة (١٣٥) بسندٍ صحيح، وجزم به البخاري.

وأما تعداد الشعب؛ فقد ذكرته في كتابنا «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» (١/ ١٠١-١٨٨) وعددتها سبعة وسبعين شعبة، وذكرت دليل كل شعبة هناك، وعلَّقت على الفصل تعليقات جيدة فليراجعها هناك من شاء، فأغنى ما ذكرته هناك عن إعادته هنا في شرح هذا المختصر.

ودل وجود هذه الشعب في الإيمان على أن الأعمال الظاهرة داخلة في مسمى الإيمان، وإخراج الأعمال عن مسمى الإيمان خطأ مخالف لعشرات الأدلة، فالإيمان قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان والجوارح واعتقادٌ بالجنان، ولمقتضى كلام السلف، وليراجع كتابنا «لمع الأدلة» ففيه مزيد واللَّه الموفق.

واعلم -علمني اللَّه وإياك- أن من الأعمال ما يزول الإيمان كلية بزواله؛ كالصلاة -في الراجح-، والزكاة -على قول-، وكذلك امتناع

الكافر من النطق بالشهادتين فمن لم يقم بذلك فهو كافر.

ومن الأعمال ما يزول كمال الإيمان بزواله؛ كأعمال البر والتقوى، وغير المباني الخمسة الموجودة في قوله ﷺ: «**بُنِي الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ، وَحَجِّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»؛ كالسنن الرواتب والتطوع.

ومعرفة الأسماء الحسنى على التفصيل كل هذا من مكملات الإيمان، وعدم معرفته والقيام به ينقص الإيمان ولا يزيله.

فاللهم لا تنزع منا الإيمان بعد أن أعطيتناه إياه، ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

• قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَرْكَانُهُ سِتَّةٌ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ».

الشرح:

• قوله: «وَأَرْكَانُهُ»:

أي: الإيمان.

بدأ في الشروع في ذكر الأركان الستة التي ذكرها جبريل لرسول اللَّه ﷺ في حديثه يوم أن سأل رسول اللَّه ﷺ عن الإيمان فقال: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

فبدأ هنا بذكر الإيمان باللَّه.

والإيمان باللَّه يتضمن الإيمان بوجوده، وانفراده بالوحدانية في ربوبيته وعبوديته، وأسمائه وصفاته.

* **أولًا: وجوده سبحانه وانفراده بالوحدانية:**

وهذا ثابت بدلالة الشرع والعقل والفطرة والحس، مقرر معروف معلوم لدى من عنده مسحة عقل، أو شيء من العلم والوعي.

فلو كان في السموات والأرض آلهة غير اللَّه لفسدتا، فسبحان اللَّه عما يصفون.

إن حاجة الإنسان ونفسه بفطرته بغير تعلُّم لترنو إلى الأعلى، إلى إله يعبده، واحد لا شريك له، كما أشار رسول اللَّه ﷺ حين قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ**

الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ». أخرجه البخاري (١٣٨٥)، ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

نعم فطرة اللَّه التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللَّه.

إن الأثر ليدل على المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج؛ أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير؟!

ولم يدَّع أحدٌ أنه خلق هذه الأشياء إلا اللَّه، ومن ادعى شيئًا من الربوبية بغير حق كما صنع فرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى، أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي . . أفلا تبصرون.

فأجراها اللَّه من فوقه، كما كان قد أجراها قبل من تحته، وأبصره الناس جثةً هامدة ملقاة على شاطئ البحر، ملقى بدنه آية على قدرة القدير سبحانه الذي قدَّر فهدى.

قال سبحانه: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ [يونس: ٩١].

وكم من آية لرسول اللَّه ﷺ تدل على قدرة مَنْ أرسله ووجوده و . . .

وكذلك كم من آية لكل نبيٍّ تدل على ذلك.

وهذا يدل على انفراده سبحانه بالعبادة بما أنه الرب المدبِّر السيد . . . فهو المستحق للعبادة.

*** ومن الإيمان باللَّه: الإيمان بانفراده بالأسماء الحسنى والصفات العلى:**

فنثبت ما أثبته اللَّه لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من غير تعطيل ولا تمثيل.

وقد سلم اللَّه تعالى على رسله لسلامة ما اعتقدوه فيه فقال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

فكل هذا داخلٌ في الإيمان باللَّه.

وقد فسَّر رسول اللَّه ﷺ الإيمان باللَّه وحده فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟**» قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: «**شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامُ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ وَصَوْمُ رَمَضَانَ وَتُعْطُوا الْخُمُسَ مِنَ الْمَغْنَمِ**...» الحديث. أخرجه البخاري (٨٧) وغيره.

وقد تناولنا هذا الموضوع بشيء من التفصيل أكثر في موطن آخر.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمَلَائِكَتِهِ».

الشرح:

هذا الركن الثاني من أركان الإيمان.

أي: الإيمان بالملائكة، أنهم موجودون حقيقة، لهم أعمال وكلهم اللَّه به.

الملائكة خلقهم اللَّه تعالى من نور، قبل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأمرهم بالسجود.

كما قال رسول اللَّه ﷺ: «**خُلِقَتِ الْمَلَائِكَة مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» أخرجه مسلم (٢٩٩٦).

وهم أعداد كبيرة هائلة، لهم أجنحة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة أجنحة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من هو ضخم.

ملك من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، كما عند أبي داود (٤٧٢٧) بإسنادٍ حسن.

وجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ضخم يسدُّ ما بين الأفق، كما في «صحيح البخاري» (٣٢٣٤).

الملائكة: عباد مكرمون لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم عن أمره سبحانه لا يخرجون، لا يستنكفون عن عبادته، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، مجبولون على الطاعة، معصومون كعصمة الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.

من كفر بهم فقد ضلَّ ضلالًا بعيدًا، وهو كافرٌ الكفر الأكبر.

• **وهؤلاء الملائكة عليهم السلام أقسام:**

منهم: الروح الأمين جبريل ينزل بالوحي.

ومنهم: من التقم القرن ينظر متى يؤمر بالنفخ في الصور فينفخ فيه.

منهم: الكرام الكاتبون.

ومنهم: الموكل بقبض الأرواح، وهو ملك الموت، وله أعوان من الملائكة.

ومنهم: الموكل بحفظ أعمال بني آدم.

ومنهم: الموكلون بحفظ ابن آدم في حلِّه وترحاله ونومه ويقظته.

ومنهم: خزنة للجنة وخزنة لجهنم، ورؤساؤهم تسعة عشر.

ومنهم: حملة العرش يوم القيامة، ثمانية، أما الآن فهم أربعة.

ومنهم: جنود الرحمن الذين لا يعلمهم إلا هو.

ومنهم: الذين يَحفُّون مجالس الذكر.

ولعلهم السيارة الفضلاء الذين يتبعون مجالس الذكر، يجلسون مع من يجلس في مجالس العلم.

ومنهم: من يبلِّغ رسول اللَّه ﷺ من أمته السلام.

ومنهم: ملائكة موكلون بالجبال.

ومنهم: زوار البيت المعمور، يطوف به سبعون ألفًا كل يوم لا تأتي نوبتهم ثانية من كثرة الزوَّار.

ملائكة تجرُّ جهنم.

وملائكة تنزل ببشارات.

ملائكة يصلون على النبي ﷺ والمؤمنين.

ملائكة يصلون على الصفوف الأول في الصلاة.

ملائكة يشفعون عند ربهم لأهل الإيمان.

وللإيمان بالملائكة ثمرات.

وراجع دلائل ما قلنا في كتابنا «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» (٣/ ١٢٣٧) وما بعدها.

والمقصود هنا:

أن من أركان الإيمان: الإيمان بالملائكة، ومن لم يؤمن بالملائكة فهو كافر غير مؤمن.

فلابد من الإيمان بالملائكة ولو الإيمان المجمل.

والإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب؛ لأن الإنسان يؤمن بهم ولم يرهم، لتصديقه ما أخبر به رسول اللَّه ﷺ عنهم.

وأما صدق رسول اللَّه ﷺ فهو بيِّن بالمعجزات والكرامات التي شاهدها الناس بأعينهم وتواتر النقل بها عن أصحاب رسول اللَّه ﷺ.

ثم بدأ المؤلف في بيان الركن الثالث من أركان الإيمان -كما في حديث جبريل عليه السلام- وهو الإيمان بالكتب السماوية.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَكُتُبِهِ».

الشرح:

هذا الركن الثالث من أركان الإيمان.

أي: الإيمان بالكتب.

من كفر بالكتب ولم يؤمن بها جميعها فهو كافر، لكن من الإيمان بها: الإيمان بأنها كلها مُحَرَّفة، ولا يزال أهل الكتاب يحرفون فيها إلى الآن، إلا القرآن؛ فإن اللَّه قد تعهَّد بحفظه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقد أمر نبيه ﷺ أن يؤمن به فقال: ﴿وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

أصل الدعوة في هذه الكتب واحدة: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، لكن في شريعتها قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

والقرآن أنزله اللَّه مهيمنًا على كل هذه الكتب، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ**

هَذِهِ الأُمَّة، يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ؛ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». أخرجه مسلم (١٥٣).

نعم في التوراة والإنجيل أشياء لم تُحرف، كآية الرجم.

وراجع زيادة توضيح لهذا في كتابنا «لمع الأدلة» (٣/ ١٢٥٣) وما بعدها.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَرُسُلِهِ».

الشرح:

هذا هو الركن الرابع من أركان الإيمان.

أي: الإيمان بالرسل، واجب، من لم يؤمن بجميع الرسل فليس بمؤمن، كما في حديث جبريل المشهور، وفيه: «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والإيمان بالرسل يتضمن الإيمان برسالتهم، فمن كفر برسالة واحدٍ منهم فقد كفر بالجميع، كما قال تعالى عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، فجعلهم مكذبين لجميع الرسل مع أنهم لم يكذِّبوا إلا نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو الذي بُعث إليهم.

والنصارى الذين كذَّبوا بمحمد ﷺ يُعتبرون قد كذَّبوا بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فنؤمن بمن عرَّفنا اللَّه اسمه؛ كمحمد وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح وغيرهم عليهم الصلاة والسلام.

كما نؤمن بمن لم نعرف اسمه ممن لم يقصص اللَّه تعالى نبأهم على محمد ﷺ.

والإيمان بالرسل يتضمن تصديقهم فيما أخبروا مما بلغنا بالسند الصحيح عن نبينا ﷺ أنهم قالوه أو أخبروا به، أو ما أخبر اللَّه به عنهم في القرآن.

والإيمان بالرسل يتضمن العمل بما أمروا به، بكل ما أخبرنا به النبي ﷺ الذي أُرسل إلينا وما كان في شريعة من قبلنا إذا وافق شرعنا.

ويجب علينا أن نحبَّ الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، ونُثني عليهم...، ونأتسي بهم.. و..

واعلم -علمني اللَّه وإياك- أنه ليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته، ولا كحاجة العين إلى ضوئها، والجسم إلى الطعام والشراب، بل أعظم من ذلك وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال.

فالرسل وسائط بين اللَّه وبين خلقه في أمره ونهيه.

وهم السفراء بينه وبين عباده، وقد أشار إلى ذلك شيخ الإسلام في «الفتاوى» (١٩/ ١٠١).

وراجع «شرح الأصول الثلاثة» للعثيمين (ص٧٠)، وكتابنا «لمع الأدلة» (٣/ ١٢٧٥) وما بعدها.

ففي الأخير مباحث كثيرة تتعلق بالرسل؛ كالفرق بين النبي والرسول، وعدد الرسل، والتفاضل بينهم وبين بعضهم، والتفاضل بينهم وبين الملائكة، وأفضلهم وسيدهم عليه الصلاة والسلام، وعصمتهم من الذنوب، ومدى عصمتهم من إيذاء البشر لهم، وسماعهم في قبورهم، والحكم على مدَّعي النبوة من بعد محمد ﷺ، وثمرات الإيمان بالرسل، ومكانة محمد ﷺ فيهم وعند ربه سبحانه، ومعجزات الرسل، واختصاص

محمد ﷺ بمعجزة القرآن الذي تحدى البُلغاء، وحقوقه ﷺ والأدب معه، ووصف خِلْقَتِه ﷺ وما يتعلق برؤيته في المنام، وهل يثبت بأوامره في المنام أحكام؟

إلى غير ذلك مما قرَّرته هناك، فليراجعه من شاء في كتابي المشار إليه آنفًا.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

الشرح:

هذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان: الإيمان باليوم الآخر.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، يوم مجموع فيه الناس لرب العالمين للحساب بعد الحشر، وسُمِّي باليوم الآخر لأنه آخر الأيام، لا أيام بعده.

وهذا اليوم لا يعلم ميعاده لا مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل.

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال رسول اللَّه ﷺ لجبريل: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» أخرجه البخاري ومسلم، وتقدم.

من كفر بالإيمان باليوم الآخر أو بأيِّ ركنٍ من الأركان الستة (الإيمان باللَّه أو ملائكته أو رسله أو اليوم الآخر، أو القدر خيره وشره)؛ فلا يقبل اللَّه منه صرفًا ولا عدلًا، فلو أنفق من أنكر هذا مثل أُحُدٍ ذهبًا ما قبله اللَّه منه حتى يؤمن بهذه الأركان الستة.

وقد تبرَّأ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا منهم لما سأله يحيى بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن الحميري عن القدرية.

وفي اليوم الآخر أهوال، وأفعال، وأقوال، وصفة حساب، وكتب، وتطاير صحف، وندم، والعرق يلجم الناس إلجامًا.

ورجلٌ في ظل صدقته، وآخر في ظل عرش الرحمن، وآخرون على

منابر من نور، وآخرون آمنون من الفزع، وآخرون يجثون على الركب يقولون: سلِّم سلِّم، ويذهب الناس يرجون من الأنبياء الشفاعة، وصراط وكلاليب وحسك، وحوض يشرب منه أناس وآخرون يُذاد بهم عن الحوض (أهل البدع)، و... وأحوال تفصيلها في كتب الرقاق، وبعضها في كتب العقائد، وقد ذكرنا طرفًا منها في كتابنا «لمع الأدلة» وراجع كتاب «التذكرة» للقرطبي بتحقيقي.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ».

الشرح:

هذا هو الركن السادس والأخير: الإيمان بالقدر خيره وشره.

أي: ويؤمن الناس بالقدر خيره وشره، الخيرُ والشر قدَّره اللَّه، ولا يُسأل عما يفعل، والجنُّ والإنس يُسألون، هذا من أركان الإسلام، من لم يؤمن به فالبراءة منه واجبة، ولا يقبل اللَّه منه صرفًا ولا عدلًا، فلو أنفق مثل أُحُدٍ ذهبًا ما قبله اللَّه منه حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليُصيبه، وأن كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس، والحلو والمُرّ.

والقدر قسم هنا إلى قدر خير وقدر شر، ولا يُنسب الشر إلى اللَّه تعالى تأدُّبًا، وقد يُقال: الشر ليس في مفعولاته.

وراجع ما دونته بشأن القدر في كتابنا «التوضيحات الجلية».

والمقصود: أن المؤمن يلزمه أن يؤمن بالقدر خيره وشره، أنه من عند اللَّه تعالى، ولا يكون مؤمنًا إلا بذلك.

والإيمان بالقدر له مراتب: العلم، والمشيئة، والكتابة، والخلق.

فقبل أن يخلق اللَّه الأشياء نؤمن بأنها مرَّت بتلك المراحل، كانت في علم اللَّه، وشاءها، وكتبها، ثم خلقها سبحانه، واللَّه الموفق.

وقد فصلت كلامًا في هذا الباب في غير هذا الموطن فأغنى عن إعادته هنا.

ولا يحتج بالقدر على المعاصي.

وسيأتي قول المؤلف: «**ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]» قريبًا.

* * *

● **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّتَّةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ودليل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]».

الشرح:

هذا دليل مع حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ لوجوب الإيمان باللَّه والملائكة والكتب والرسل.

ومعنى البر هنا أقوال، منها: الإيمان، أو هو حسن الخلق، أو هو التقوى، أو هو أعمال الخير كلها... كلها أقوال محتملة.

● **ومعنى الآية إجمالًا:**

ليس هذا هو البر من العبادة ﴿أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾، بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزَّه عن كل نقص، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وهو كل ما أخبر به في كتابه عنهم ووصفهم به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها اللَّه على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه القرآن من الأخبار والأحكام ﴿وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ عمومًا، وخصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...

وتقدم الكلام على الإيمان باللَّه والملائكة والكتب والرسل قبلُ، واللَّه الموفق.

* * *

● **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن الإحسان:**

«**أركانه: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»**. **وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]. **وقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٧ . ٢٢٠]. **وقَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]».

الشرح:

ذكر المؤلف المرتبة الثالثة في حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: الإحسان، وهو ركن واحد بينه رسول اللَّه ﷺ، وهو مراقبة اللَّه تعالى في السر والعلن، وعبَّر عنه رسول اللَّه ﷺ بقوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

والقيام بمرتبة الإحسان تحقق للإنسان معيَّة اللَّه الخاصة، ولذلك يقول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

واستشعار أن اللَّه يراك حين تقوم يساعد على هذا.

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

تضمَّنت الآية علمه وشهوده الذي يتضمَّن المراقبة.

والإحسان يبذل للناس بالصدقة بالشفاعة بالكلمة الطيبة بالنصيحة بالهداية وبذل الخير بأنواعه لعباد اللَّه رجاء الفضل من اللَّه لا لسمعة ولا رياءً ولا ابتغاء الأجر ولا لشيء من ذلك.

وكذا الإحسان في عبادة اللَّه تعبد كأنك تراه عبادة شوق ومحبة أو عبادة خوف «كَأَنَّهُ يَرَاكَ» وتخاف منه . . .

والمقصود بالمعية في قوله تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾، هي كما في قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] معية خاصة بالنصرة والتأييد والإعانة، بخلاف المعية العامة التي هي مع الخلائق جميعًا بالعلم والإحاطة . . .

● **ومعنى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ﴾: أي: يفعلون المأمورات وينتهون عن المحذورات.

● **وقوله**: ﴿وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾: أي: مع المحسنين معيَّة خاصة يؤيدهم وينصرهم ويحميهم . .

● **وقوله**: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾: أسماء للَّه.

﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾: الذي لا يغلبه أحدٌ، العزيز: رفيع القدر وهو متصفٌ بالعزة لا يُغلب، وللَّه العزة ولرسوله وللمؤمنين.

وقوله: ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم من أسماء اللَّه متصفٌ بصفة الرحمة، فهو سبحانه الذي يرحم العباد.

● **وقوله**: ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾: اللَّه هو الذي يراك حينما تقوم في الصلاة وفي غيرها من القيام في المواقف الخاصة، إذا كنت وحدك، وأما إذا كنت تصلي في جماعة فاللَّه يراك حينما تتقلب في السجود إذا كنت في جماعة، فإذا عرفت هذا واستحضرته فهذا يدفعك إلى مقام الإحسان.

● **وقوله**: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا﴾: وجه الدلالة من الآية: أنك إذا علمت أن اللَّه شهيد عليك، فإن هذا يحملك على الإحسان في عملك كأنك ترى اللَّه تعالى.

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ[1]، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: «أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ[2]. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[3]. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا[4]، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: «يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم».».

---

(١) أي: فخذ النبي ﷺ.

(٢) التعجُّب إنما كان لأنه يسأل -يعني: لا يعرف-، فكيف يقول بعد جواب رسول اللَّه ﷺ: صدقتَ؟ فإنه يدل على معرفته بالجواب قبل، فهذا وجه التعجُّب.

(٣) هذه عقيدة تعلمها: أنه لا أحد يعلم الساعة إلا اللَّه بدلالة الآية.

(٤) أي: أن تلد الوالدة مَنْ يعاملها كما يُعامل المملوك كناية عن عقوق الوالدين.

الشرح:

الحديث في «الصحيحين».

● قوله: «وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ»:

أي: على أركان الإيمان والإسلام والإحسان: حديث جبريل المشهور عن عمر، وقد رواه عن رسول اللَّه ﷺ غير عمر، ورواه ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما.

وتعجّب الصحابة رضي الله عنهم من أنه غريب، ومن المفترض أن يكون عليه أثر السفر ولكن ليس الأمر كذلك، ويفترض أن الغريب يناقش أو يتلكأ لشُبَه عنده، لكنه يسأله فيجيبه فيصدقه سريعًا دون تردد، ويجلس إلى رسول اللَّه ﷺ جلسة المتعلم.

ثم يخبره عن الإسلام والإيمان والإحسان، وتقدم الكلام على ذلك.

ثم أخبر ﷺ في آخر الحديث أن هذا جبريل عليه السلام.

● وفي هذا الحديث فوائد كثيرة:

- **منها**: بيان أركان الإسلام والإيمان والإحسان، وإمكانية رؤية الإنسان للملائكة، -وثَمَّ أدلة أخرى على ذلك-.

- **ومنها**: تقدير اللَّه تعالى للمسلمين جبريل عليه السلام ينزل يسأل ليتعلم الصحابة رضي الله عنهم.

- **ومنها**: تسمية ما ذكر في الإيمان والإسلام والإحسان أنه دين، فقال ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم**»، وحرص الصحابة على الانتباه من أسئلة ليتعلَّموا حتى إنهم كان بعضهم يحب أن يأتي الأعرابي يسأل رسول اللَّه ﷺ ليتعلَّموا.

- **ومنها**: بيان بعض أشراط الساعة.

هذا الحديث من دلائل نبوته ﷺ، فإن رسول اللَّه ﷺ في بعض الروايات كما عند البخاري (٥٠)، ومسلم (١٠) قال للصحابة بعدما قام جبريل: «**رُدُّوهُ عَلَيَّ**»، فالتمسوه فلم يجدوه، وهذا ليعلموا بالمُشاهد أنه ﷺ مَلَك من الملائكة، لا من الإنسان، إذ لو كان إنسانًا لأدركوه ولو بعيدًا.

وفي بعضها قال: «**هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعْلَمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا**»، ويدل على استحباب السؤال للتعلُّم، وقد يجب أحيانًا إذا كان هو طريق المعرفة الواجبة . . إلى آخر الفوائد الكثيرة من هذا الحديث.

وفي الحديث مايدل على التدرُّج في التعليم؛ إذ أن جبريل سأل النبي ﷺ -والصحابة يسمعون- عن أوائل هذا الدين.

والعالم الرباني هو الذي يعلم الناس بصغار العلم قبل كباره، فليبدأ بالأهم، واللَّه الموفق.

والحديث يحتاج إلى إسهاب طويل في الشرح لبعض فقراته، وبعض جزئياته؛ لأن هذا الحديث العظيم يُعتبر قد جمع الدين كله: الإسلام والإيمان والإحسان.

ولعل هذا الاختصار مما يناسب المقام، وفقنا اللَّه لما يحب ويرضى.

والمقصود: أن الحديث يدل على مراتب الدين الثلاثة: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الأَصْلُ الثَّالِثُ: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ:

وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ».

الشرح:

تقدم الأصل الأول، وهو: معرفة العبد ربه، والأصل الثاني: معرفة العبد دينه -أي: دين الإسلام-، ثم الأصل الثالث الذي ذكره المؤلف هنا من الأصول التي يُسأل عنها الإنسان في قبره: معرفة نبيه ﷺ.

ثم بدأ المؤلف يعرِّف بالنبيِّ ﷺ ونسبه وسنِّه، فبدأ باسمه، ثم ثنَّى بسنِّه، ثم بشيء مما دعى الناس إليه وأُرسل به، وشيء مما قام به ﷺ على سبيل الإجمال.

فقال عن التعريف باسمه: «**مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ**»: كذا قال البخاري في باب مبعث النبي ﷺ، قال عقب حديث (٣٨٥٠): «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعبِ ابْنِ لؤَيِّ بْنِ غالِبِ بْنِ فِهْرِ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِلْيَاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ نِزَارِ ابْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ»، والمؤلف كأنه أخذه مما ذكره البخاري.

وفي «صحيح البخاري» (٢٨٧٤)، ومسلم (١٧٧٦) أنه ﷺ كان يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب**».

وفي «صحيح البخاري» (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤) قوله ﷺ: «**أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَنَا أَحْمَدُ وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ وَأَنَا الْحَاشِرُ...**» الحديث.

وفي «صحيح مسلم» (٢٢٧٦) عن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ. وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ. وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ. وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**».

فهو ﷺ ذو نسب، كما قال أبو سفيان -وكان كافرًا- لهرقل لمَّا سأله عن نسبه ﷺ فيهم، فقال: «هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ»، . . . . قال هرقل: «سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ فِيكُمْ فَزَعَمْتَ أَنَّهُ ذُو نَسَبٍ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا. . .» الحديث بطوله في «صحيح البخاري» (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

● **ومعنى (مُحَمَّد)**؛ أي: كثير التحميد، وهو رسول اللَّه ﷺ أزكى الناس نفسًا، وأشرفهم نسبًا، وأنبلهم خلقًا، وأرجحهم عقلًا، وأوفقهم طريقة، وكيف لا، وقد هيأه اللَّه تعالى لهذه المهمة، وهذه الوظيفة العظيمة.

وأما تسمية إبراهيم عليه السلام بـ(الخليل -يعني: خليل اللَّه-)، فهذا في قوله ﷺ أتى.

ففي «صحيح البخاري» (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: «**أَتْقَاهُمْ**» قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: «**فَيُوسُفُ نَبِي اللَّهِ ابْنُ نَبِي اللَّهِ ابْنِ نَبِي اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ**» . . . الحديث.

وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال عليٌّ رضي الله عنه: «أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى إِبْرَاهِيمُ قِبْطِيَّتَيْن، ثُمَّ يُكْسَى النَّبِيُّ ﷺ

حُلَّةً وَهُوَ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ».

أخرجه ابن المبارك كما في «زوائد الزهد» (٣٦٤) وغيره بسندٍ صحيح عن عليٍّ موقوفًا، وله حكم الرفع.

وكذا سمَّاه نوح عليه السلام في حديث الشفاعة قال: «**اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ**»، وهو في «صحيح مسلم» (١٩٥).

أرسله اللَّه تعالى كما أرسل كل نبي بلسان قومه.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

واعلم أن نبوة رسول اللَّه ﷺ ثابتة بالنص وإجماع المسلمين، وإذا نظر في معجزاته ﷺ التي أيَّده اللَّه بها علم أنه نبيٌّ مرسل . . . بإجماع العقلاء إلا من ركبه الشيطان

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَرَسُولًا».

الشرح:

هذا صحيح.

● وقوله: «وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ»:

أي: المدة التي عاشها -عليه الصلاة والسلام-، ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، منها أربعون عامًا قبل أن يوحى إليه، وبقية الثلاثة والستين ثلاثة وعشرون بعد الوحي كان نبيًّا رسولًا ﷺ.

● يدل على ذلك:

ما أخرجه البخاري (٣٥٣٦)، ومسلم (٢٣٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تُوفِّيَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ».

ولفظ مسلم (٢٣٤٨) عن أنس رضي الله عنه: «قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ. وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ. وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ».

ومثله حديث ابن عباس أخرجه مسلم (٢٣٥١): «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ. وَتُوُفِّي وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ».

وعقبه عند مسلم (٢٣٥٢) عن معاوية رضي الله عنه مثله.

فهذه أدلة على كلام المؤلف.

وأما ما ورد في «صحيح مسلم» (٢٣٥٣) عن عمار مولى بني هاشم

قال: «سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: كَمْ أَتَى لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ مَاتَ؟ فَقَالَ: مَا كُنْتُ أَحْسِبُ مِثْلَكَ مِنْ قَوْمِهِ يَخْفَى عَلَيْهِ ذَاكَ. قَالَ: قُلْتُ: إِنِّي قَدْ سَأَلْتُ النَّاسَ فَاخْتَلَفُوا عَلَيَّ. فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ قَوْلَكَ فِيهِ. قَالَ: أَتَحْسُبُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: أَمْسِكْ أَرْبَعِينَ بُعِثَ لَهَا خَمْسَ عَشْرَةَ بِمَكَّةَ يَأْمَنُ وَيَخَافُ، وَعَشْرَ مِنْ مُهَاجَرِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ».

وفي رواية -عند مسلم أيضًا- (٢٣٥٣) عن عمار مولى بني هاشم، عن ابن عباس: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّي وَهُوَ ابْنُ خَمْسٍ وَسِتِّينَ».

فمما لا يعول عليه لاستنكاره على راويه عمار بن أبي عمار.

وقد رواه مسلم في المتابعات، وهي ليست على شرطه، فتنبَّه.

فقد قال البخاري في «التاريخ الأوسط» (١/ ١٠٦)، وعنه الحافظ في «التهذيب» (٤/ ٢٥٤) ترجمة عمار هذا:

«عمار بن أبي عمار عن ابن عباس: توفي النبي ﷺ وهو ابن خمس وستين، ولا يتابع عليه، وكان شعبة يتكلم في عمار».

وقد أشار الحافظ في «الفتح» (٧/ ٧٥٧) إلى ضعف حديث عمار هذا بعد أن نقل عن الجمهور أن وفاته ﷺ كانت عن ثلاث وستين سنة، قال: «والحاصل أن كل من روى عنه من الصحابة ما يخالف المشهور جاء عنه المشهور، وهو ابن عباس وعائشة وأنس». اهـ

فالحديث المشار إليه ليس على شرط مسلم، كما حرَّرت ذلك في كتابي «الفوائد النيرة» (٢١٦).

* * *

● **قول المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«نُبِّئَ بـ﴿اقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بـ(الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ، وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ».

الشرح:

● **قوله**: «نُبِّئَ بـ﴿اقْرَأْ﴾»:

أي: أول ما أرسل اللَّه إليه الملك قال له: ﴿اقْرَأْ﴾.

ففي «صحيح البخاري» (٣) قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ: «**مَا أَنَا بِقَارِئٍ**» قَالَ: «**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ:** ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق: ١-٣]» . . . الحديث.

وهو في «صحيح مسلم» (١٦٠) بطوله.

● **وقوله**: «وَأُرْسِلَ بـ(الْمُدَّثِّرْ)»:

هو في نفس الحديث (٤) في «صحيح البخاري»: قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ قَالَ: وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ

صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ -إِلَى قَوْلِهِ- ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ١-٥] فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ».

فهذه هي أول ما نزل من القرآن بعد العلق.

● **قوله**: «وَبَلَدُهُ مَكَّةُ»:

أي: البلدة التي ولد فيها وعاش فيها ما يزيد على خمسين عامًا.

ثم هاجر إلى المدينة، كما في رواية مسلم (٢٣٥١) عن ابن عباس قال: «أَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةَ يُوحَى إِلَيْهِ. وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا. وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلاثٍ وَسِتِّينَ سَنَةً».

والمقصود: أن رسول اللَّه ﷺ نبيٌّ رسول، أُمر بتبليغ الدين، وجاء برسالة جديدة وشريعة جديدة.

وثَمَّ فرقٌ بين النبي والرسول.

● **وقول المؤلف**: «نُبِّئَ بـ﴿ٱقْرَأْ﴾، وَأُرْسِلَ بـ(الْمُدَّثِّرْ)»:

ظاهره أناه يفرِّق بين النبي والرسول، والنبيُّ من بُعث إلى قوم موافقين، والرسول من بُعث إلى قوم مخالفين، كما ذكر نحوه شيخ الإسلام في «النبوات» (٢/ ٧١٧) وليس من شرط الرسول أن يأتي بشريعة جديدة.

فإن يوسف عليه السلام كان على ملة إبراهيم، وداود وسليمان كانا رسولين وكانا على شريعة التوراة، وكذا إسماعيل عليه السلام، قال تعالى عنه: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وقال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤]، فسمَّاه رسولًا.

وسمَّى رسولنا ﷺ نبيًّا فقال: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٤]، مع أنه عليه السلام كان على شريعة إبراهيم عليه السلام.

فراجع مزيدًا لهذا كتاب «النبوات» لشيخ الإسلام، وكتابنا «لمع الأدلة في بيان عقيدة أهل السنة» (٣/ ١٢٨).

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بَعَثَهُ اللَّهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾: الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ، وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ».

الشرح:

بين المؤلف شيئًا من تفسير صدر سورة المدثر كما رأيت، ثم أشار إلى استمراره ﷺ يدعو إلى التوحيد عشر سنوات، ثم بعد ذلك عرج به ﷺ إلى السماء، وفُرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة بعدها ثلاث سنوات قبل أن يهاجر من مكة إلى المدينة.

فقد أخرج البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٤) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَانَ أَبُو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ ﷺ، فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي ثُمَّ أَطْبَقَهُ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَعَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ جِبْرِيلُ لِخَازِنِ السَّمَاءِ:

افْتَحْ، قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ، قَالَ: هَلْ مَعَكَ أَحَدٌ؟ قَالَ: نَعَمْ مَعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَقَالَ: أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى، حَتَّى عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَقَالَ لِخَازِنِهَا: افْتَحْ، فَقَالَ لَهُ خَازِنِهَا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُ فَفَتَحَ».

قَالَ أَنَسٌ: فَذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ فِي السَّمَوَاتِ آدَمَ وَإِدْرِيسَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُثْبِتْ كَيْفَ مَنَازِلُهُمْ غَيْرَ أَنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ وَجَدَ آدَمَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَإِبْرَاهِيمَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ.

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا مَرَّ جِبْرِيلُ بِالنَّبِيِّ ﷺ بِإِدْرِيسَ قَالَ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِمُوسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالأَخِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا مُوسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِعِيسَى فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا عِيسَى، ثُمَّ مَرَرْتُ بِإِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِحِ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ».

قَالَ: ابْنُ شِهَابٍ فَأَخْبَرَنِي ابْنُ حَزْمٍ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَأَبَا حَبَّةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَا يَقُولَانِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «ثُمَّ عُرِجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوَى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الأَقْلَامِ».

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وَأَنَسُ ابْنُ مَالِكٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**فَفَرَضَ اللَّهُ ﷻ عَلَى أُمَّتِي خَمْسِينَ صَلَاةً، فَرَجَعْتُ بِذَلِكَ حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى فَقَالَ: مَا فَرَضَ اللَّهُ لَكَ عَلَى أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: فَرَضَ خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى قُلْتُ: وَضَعَ شَطْرَهَا، فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَرَاجَعْتُ فَوَضَعَ شَطْرَهَا، فَرَجَعْتُ إِلَيْهِ فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، فَرَاجَعْتُهُ فَقَالَ: هِيَ خَمْسٌ وَهِيَ خَمْسُونَ، لَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: رَاجِعْ رَبَّكَ، فَقُلْتُ: اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي، ثُمَّ انْطَلَقَ بِي حَتَّى انْتَهَى بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ، ثُمَّ أُدْخِلْتُ الْجَنَّةَ: فَإِذَا فِيهَا حَبَايِلُ اللُّؤْلُؤِ، وَإِذَا تُرَابُهَا الْمِسْكُ**».

- **كانت دعوته ﷺ على مراحل:**

المرحلة المكية: وكانت الدعوة سرية ثلاث سنوات، ثم عشرة صدع بالحق، ونزلت الصلاة في هذه الفترة المكية، ثم عشر سنين في المدينة، وفيها نزلت الشرائع: الزكاة، والصيام، والحج ... إلخ. كما أشار المؤلف.

- **وتفسير المؤلف لـ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾: أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ»:**

هذا قولٌ للمفسرين، والأظهر أن ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: أي: خوِّف الناس وحذِّرهم من الشرك والمعاصي، و﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: اغسل ثيابك من النجاسات؛ لأن المشركين كانوا لا يتطهرون، لأنه سبحانه ذكر بعدها:

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: فاهجر الشرك وعبادة الأصنام، لكن من قال: إذا كان اللَّه تعالى أمر بتطهير الثياب أليس لأن يأمر بالتطهير من الشرك والتحلي بالتوحيد من باب أولى، فله وجه.

وثَمَّ أقوال كثيرة في تفسير الآية.

● **وقوله: «وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا»:**

أي: لا يكفي هجرها فحسب، بل لابد من البراءة من أهل الشرك والتنكُّر لهم، وإظهار ما هم عليه من باطل.

● **وقوله: «أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ»:**

والعروج إلى السماء ثبت بالسنة.

وأما الإسراء فثابت بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١]، وثابتٌ بالسنة كما تقدم.

والإسراء والمعراج هذا من خصائص نبيِّنا ﷺ، عرج به إلى سدرة المنتهى.

وأما رفع عيسى عليه السلام فهو حيٌّ إلى أن ينزل آخر الزمان، يحكم بشريعة محمد ﷺ، ويقتل الدجال، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام.

وأما رفع الأنبياء الذين التقى بهم محمد ﷺ؛ فهذا بعد موتهم -عليهم جميعًا الصلاة والسلام-.

● **وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾:**

أي: لا تمنَّ على أحدٍ بنعمةٍ أنعمتَ بها عليه؛ لأن الحقيقة إنما وفقك

اللَّه تعالى إلى ذلك، فكيف تمنن على غيرك بما فضلك اللَّه به عليه، وليس هو من توفيقك لنفسك؟.

● **وقوله**: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾:

أي: اصبر ابتغاء وجه اللَّه، كما أمر اللَّه تعالى.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

الشرح:

هذا مما لا نزاع فيه أمر رسول اللَّه ﷺ بالهجرة، وهي: الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ.

ويدل عليه قول ابن عباس الذي أخرجه البخاري (٣٨٥١) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أُنْزِلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِينَ، ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ».

● وفي قصة الهجرة من الفوائد الكثيرة.

ومن أظهر ذلك: أنه ﷺ هاجر من أحب البلاد إليه وأحب البلاد إلى اللَّه لإقامة الدين، ذلك أن حفظ الدين في المقدمة.

فمن لم يستطع أن يقيم دينه في بلد فليهاجر منه.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ [النساء: ٩٧] وسيورد المؤلف هذه الآية قريبًا.

ونجَّاه اللَّه تعالى ببركة الهجرة من الإيذاء الشديد، وجعل اللَّه له في المدينة من الأنصار من قاموا معه خير قيام في مواساته، ونصرته في دعوته، ومنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، بعد أن اجتمع الكفار على حربه. وصدق اللَّه تعالى إذ يقول: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩]، ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟

أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨]، فرضي اللَّه عن الأنصار.

ففي «صحيح البخاري» (٣٩٠٥) قول رسول اللَّه ﷺ للمسلمين: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ، ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ**» وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِي**».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِي أَنْتَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**».

فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الخَبَطُ، أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ.

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ، قَالَ: عُرْوَةُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ.

قَالَ قَائِلٌ لِأَبِي بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا، فِي سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِي وَأُمِّي، وَاللَّهِ مَا جَاءَ بِهِ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ.

قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «**أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ**».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ، بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «**فَإِنِّي قَدْ أُذِنَ لِي فِي الخُرُوجِ**».

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَعَمْ» قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ -بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ- إِحْدَى رَاحِلَتَيَّ هَاتَيْنِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**بِالثَّمَنِ**».

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجِهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِي جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا، فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ.

قَالَتْ: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ بِغَارٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِنْدَهُمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَهُوَ غُلَامٌ شَابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدْلِجُ مِنْ عِنْدِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصْبِحُ مَعَ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلَا يَسْمَعُ أَمْرًا، يُكْتَادَانِ بِهِ إِلَّا وَعَاهُ، حَتَّى يَأْتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ، وَيَرْعَى عَلَيْهِمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، مَوْلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْحَةً مِنْ غَنَمٍ، فَيُرِيحُهَا عَلَيْهِمَا حِينَ تَذْهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِي رِسْلٍ، وَهُوَ لَبَنُ مِنْحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنْعِقَ بِهَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ بِغَلَسٍ، يَفْعَلُ ذَلِكَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثِ.

وَاسْتَأْجَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ رَجُلًا مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَهُوَ مِنْ بَنِي عَبْدِ بْنِ عَدِيٍّ، هَادِيًا خِرِّيتًا، وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ، قَدْ غَمَسَ حِلْفًا فِي آلِ العَاصِ ابْنِ وَائِلٍ السَّهْمِيِّ، وَهُوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيْهِ رَاحِلَتَيْهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَوْرٍ بَعْدَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، بِرَاحِلَتَيْهِمَا صُبْحَ ثَلَاثٍ، وَانْطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بْنُ فُهَيْرَةَ، وَالدَّلِيلُ، فَأَخَذَ بِهِمْ طَرِيقَ السَّوَاحِلِ. . . . » الحديث.

هذا طرف من قصة رسول اللَّه ﷺ في الهجرة. فراجع «صحيح البخاري» (٣٩٠٦) وما بعدها وقصة سراقة بن مالك مع رسول اللَّه ﷺ وأبي بكر.

وفي «صحيح البخاري» (٣٦٥٣) قول أبي بكر رضي الله عنه: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا.

فَقَالَ: «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟**».

قَالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَارِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِأَقْدَامِ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ بَعْضَهُمْ طَأْطَأَ بَصَرَهُ رَآنَا، قَالَ: «**اسْكُتْ يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا**». أخرجه البخاري (٣٩٢٢). وهو في «صحيح مسلم» (٢٣٨١).

وفي «صحيح البخاري» (٣٩٠٦) عن عروة: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَقِيَ الزُّبَيْرَ فِي رَكْبٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، كَانُوا تِجَارًا قَافِلِينَ مِنَ الشَّأْمِ، فَكَسَا الزُّبَيْرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ ثِيَابَ بَيَاضٍ، وَسَمِعَ المُسْلِمُونَ بِالْمَدِينَةِ مَخْرَجَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ مَكَّةَ، فَكَانُوا يَغْدُونَ كُلَّ غَدَاةٍ إِلَى الحَرَّةِ، فَيَنْتَظِرُونَهُ حَتَّى يَرُدَّهُمْ حَرُّ الظَّهِيرَةِ، فَانْقَلَبُوا يَوْمًا بَعْدَ مَا أَطَالُوا انْتِظَارَهُمْ، فَلَمَّا أَوَوْا إِلَى بُيُوتِهِمْ، أَوْفَى رَجُلٌ مِنْ يَهُودَ عَلَى أُطُمٍ مِنْ آطَامِهِمْ، لِأَمْرٍ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَبَصُرَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ مُبَيَّضِينَ يَزُولُ بِهِمُ السَّرَابُ، فَلَمْ يَمْلِكِ اليَهُودِيُّ أَنْ قَالَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا مَعَاشِرَ العَرَبِ، هَذَا جَدُّكُمُ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ، فَثَارَ المُسْلِمُونَ إِلَى السِّلَاحِ، فَتَلَقَّوْا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِظَهْرِ الحَرَّةِ، فَعَدَلَ بِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمْ فِي بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَذَلِكَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الأَوَّلِ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَامِتًا، فَطَفِقَ مَنْ جَاءَ مِنَ الأَنْصَارِ - مِمَّنْ لَمْ يَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ - يُحَيِّي أَبَا بَكْرٍ، حَتَّى أَصَابَتِ الشَّمْسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى ظَلَّلَ عَلَيْهِ بِرِدَائِهِ، فَعَرَفَ النَّاسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ ذَلِكَ . . . ثُمَّ بَدَأَ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَنْقُلُ مَعَهُمُ اللَّبِنَ فِي بُنْيَانِهِ وَيَقُولُ، وَهُوَ يَنْقُلُ اللَّبِنَ: «**هَذَا الحِمَالُ لَا حِمَالَ خَيْبَرْ، هَذَا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرْ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَهْ، فَارْحَمِ الأَنْصَارَ، وَالمُهَاجِرَهْ...**».

ثم بعد ذلك أسلم الحبر عبد اللَّه بن سلام و. . . .

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«وَالْهِجْرَةُ الاِنْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الْشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ».

الشرح:

(بَلَد الشِّرْك) يعني: البلاد التي فيها شعائر الكفر، ولا تقام فيه شعائر الإسلام على وجه كامل.

وشعائر الإسلام الظاهرة الأذان والصلاة في جماعة والأعياد والجمع....

ولا يقال: إن بلاد الكفر كلها على هذا، فهي بلاد إسلام؛ لأنه يوجه فيها بعض هذه الشعائر؛ لأنها نعم تقام فيها لكن ليست على وجه عام شامل، فالشعائر فيها تعتبر غير ظاهرة.

وقد ذكرت ضوابط دار الإسلام ودار الكفر ودلائل ذلك في كتابي «التوضيحات الجلية في بيان عقيدة أهل السنة».

والهجرة باقية من بلد لا يستطيع المرء أن يقيم دينه فيها إلى بلاد يمكنه إظهار دينه فيها.

وقديمًا هاجر الصحابة ﷺ من مكة إلى الحبشة وإلى المدينة من أجل تحقيق التوحيد والمحافظة على دينهم.

* * *

● ولذا قال المؤلف:

«وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧ - ٩٩][1]. وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]».

الشرح:

الهجرة: فريضة على هذه الأمة من بلاد الشرك التي لا يستطيع المرء أن يقيم دينه فيها، فلابد أن يهاجر كما فعل رسول اللَّه ﷺ.

وأما قوله ﷺ يوم فتح مكة: «**لَا هِجْرَةَ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**».

أخرجه البخاري (**٣٠٧٧**) ومسلم (**١٣٥٣**).

وفي رواية البخاري (**٢٨٢٥**): «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ**...».

عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم؛ أي: لا هجرة كاملة تساوي الهجرة الأولى.

---

(١) العفو قد يكون قبل العقوبة أو بعدها، أما المغفرة فإنه لا يكون معه عقوبة أصلًا، فالمغفرة تشتمل على محو الذنب والوقاية من العقوبة في الدنيا والآخرة.

وقد قال العلماء:

الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام باقية إلى يوم القيامة، والمعنى: «لا هجرة بعد الفتح من مكة» لأنها صارت دار إسلام، وإنما تكون الهجرة من دار الحرب». وقد مضت الهجرة لأهلها الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم قبل فتح مكة لمواساة النبي ﷺ ومؤازرته ونصرة دينه وضبط شريعته.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنَّ الْهِجْرَةَ قَدْ مَضَتْ لِأَهْلِهَا**». أخرجه مسلم (١٨٣٦).

فكل هجرة بعدُ هي أقل من الهجرة الأولى في الامتياز الظاهر، وقد ذهب أهلها الأوائل رضي الله عنهم بهذا الامتياز.

وفي «صحيح مسلم» (١٨٦٥) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أَنَّ أَعْرَابِيًّا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: «**وَيْحَكَ، إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ، فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**».

قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَهَلْ تُؤْتِي صَدَقَتَهَا؟**» قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ: «**فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا**».

والآية الأولى التي ذكرها المؤلف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ . . .﴾ الآية [النساء: ٩٧].

قال الشيخ السعدي رحمه الله **في «تفسيره»:**

«هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾؟ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟

بل كثرتم سوادَهم، وربما ظاهرتموهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك؛ لأن اللَّه وبخهم وتوعدهم ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها، واستثنى المستضعفين حقيقة؛ ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: تقرر عند كل أحد أن أرض اللَّه واسعة، فحيثما كان العبد في محل لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعًا وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة اللَّه كما قال تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

قال اللَّه عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] وفي هذه الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر».

ففي الآية دليل على الإيمان بالملائكة، وأنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها وعملها كما يدل عليه لفظ ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾ فمن بقي له شيء من ذلك لم يكن متوفيًا.

فمن عجز عن الهجرة وغيرها من الواجبات فإن اللَّه تعالى يعفو عنه ويغفر له.

وقد ذكر اللَّه آية بعدها في الترغيب في الهجرة وأن اللَّه يوسِّع على من هاجر فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا

رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠][1].

وقد قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» لآية النساء هذه (٢/ ٣٤٤):

«نزلت هذه الآية الكريمة عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين وهو قادر على الهجرة وليس متمكنًا من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه مرتكب حرامًا بالإجماع وبنص الآية.

- **وضابط بلاد الشرك وبلاد الإسلام:**

أن الأرض التي يُقام عليها شعائر الإسلام الظاهرة علنًا (الأذان، والصلوات، وصلاة الجمعة، والعيدين، ونحو ذلك) بلاد إسلام.

وبلاد الشرك البلاد التي لا يقام فيها ذلك على هذا النحو، وإنما تقام فيه شعائر الكفر فيها على وجه علني شامل.

وإذا كان الأذان يكون في بلاد الكفر عند بعض الأقلية المسلمة على وجه ليس شاملًا فهذا لا يجعل البلدة بلدة إسلام.

وقد اعتبر النبي ﷺ البلاد بلاد إسلام بفشُوِّ الأذان فيها، كما بينته في غير هذا الموطن.

---

(١) وأخرج الطبري في «تفسيره» (٧/ ٢٩٨) وابن أبي حاتم (٥٨٨٧) بسند حسن لغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧] فَكَانَ بِمَكَّةَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ ضَمْرَةُ مِنْ بَنِي بَكْرٍ وَكَانَ مَرِيضًا، فَقَالَ لِأَهْلِهِ: أَخْرِجُونِي مِنْ مَكَّةَ فَإِنِّي أَجِدُ الْحَرَّ، فَقَالُوا: أَيْنَ نُخْرِجُكَ؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠] إلى آخر الآية. وعقب هذا عند الطبري عن سعيد بن جبير مرسلًا بنحوه يتقوى به السند الأول. ولذا أورده الشيخ مقبل في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (ص١١٢)؛ لأنه ارتقى عنده إلى حيِّز القبول.

وقد قال أنس رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا غَزَا بِنَا قَوْمًا، لَمْ يَكُنْ يَغْزُو بِنَا حَتَّى يُصْبِحَ وَيَنْظُرَ، فَإِنْ سَمِعَ أَذَانًا كَفَّ عَنْهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا أَغَارَ عَلَيْهِمْ، فَخَرَجْنَا إِلَى خَيْبَرَ، فَانْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ لَيْلًا، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَلَمْ يَسْمَعْ أَذَانًا . . .» الحديث. أخرجه البخاري (٦١٠) ومسلم.

وثم هجرة لما نهى اللَّه عنه من السوء.

فقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ...**» أخرجه البخاري في «صحيحه» (١٠).

وفي «مسند أحمد» (٣/ ١٥٤) وابن حبان بسندٍ صححه الحافظ في «الفتح» في موضعين عن أنس بن مالك: أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السُّوءَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَبْدٌ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**».

وكنت قد صحَّحته في الطبعة الأولى من كتابي «فقه التعامل مع الجار وبيان حقوقه» (ص٣١)، ثم زدت استشكالات على صحته ذكرتها في الطبعة الثانية لكلام وقفت عليه لبعض أهل العلم يسَّر اللَّه إخراجها، واللَّه الموفق.

هجر أهل المعاصي والبدع هجرة واجبة، وكذا الزنادقة والملبسين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وحديث كعب بن مالك وقصة صبيغ بن عسل وضرب عمر له وهجره وأمر الناس بهجره وغير ذلك من الآثار التي ذكرتها في كتابي «ذم أصحاب الأهواء والبدع وفقه التعامل معهم»، وكتابي «التعامل مع المخالف» يسَّر اللَّه إخراجهما، هي دليل على ذلك.

• قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قَالَ الْبَغَوِيُّ: سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي مَكَّةَ لَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللَّهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ».

الشرح:

نصُّ قول البغوي في «تفسيره» (١/ ٦٨٥): «نزلت في ناسٍ من أهل مكة تكلَّموا بالإسلام ولم يهاجروا».

• وقوله: «نَادَاهُمُ اللَّهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ»:

أي: خاطبهم بما يخاطِب المسلمين به.

وكان الأولى ألا ينقل المؤلف تحرير ذلك عن البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ إن كان قاله، وإنما ينقل أسباب النزول من الكتب المسندة التي تبين سبب نزول الآية.

وقد أخرج البخاري (٤٥٩٦) من طريق محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: قُطِعَ عَلَى أَهْلِ المَدِينَةِ بَعْثٌ، فَاكْتُتِبْتُ فِيهِ، فَلَقِيتُ عِكْرِمَةَ، مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ فَأَخْبَرْتُهُ، فَنَهَانِي عَنْ ذَلِكَ أَشَدَّ النَّهْيِ، ثُمَّ قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَنَّ نَاسًا مِنَ المُسْلِمِينَ كَانُوا مَعَ المُشْرِكِينَ يُكَثِّرُونَ سَوَادَ المُشْرِكِينَ، عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَأْتِي السَّهْمُ فَيُرْمَى بِهِ فَيُصِيبُ أَحَدَهُمْ، فَيَقْتُلُهُ - أَوْ يُضْرَبُ فَيُقْتَلُ» - فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٧].

واعلم -علَّمني اللَّهُ وإياك-:

أن الهجرة ليست واجبة على الجميع من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام.

- فمن قدر على إظهار دينه في بلاد الكفر -بلا توهُّم!- فلا يجب عليه الهجرة، ولذلك هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة وهم قوم نصارى يشركون باللَّه كفار لكونها أخف عليهم من مكة، وجلس أبو بكر في جوار ابن الدغنة وهو كافر، لكونه مستضعفًا، ودعى رسول اللَّه ﷺ لبعض المستضعفين، كما في «صحيح البخاري» (٤٥٩٨) ومسلم (٦٧٥) ممن لم يهاجروا.

- وكذلك من كان يدعو الناس في بلاد الكفر وأمِن على دينه فلا تجب عليه الهجرة.

- وكذلك من كان مستضعفًا من النساء والولدان وكبار السن والعجزة الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا.

- أما الهجرة لبلاد الكفر للسياحة فليست ضرورة ولا فيها حاجة تبيح لإنسان السفر إلى بلادهم، فأحيانًا المعيشة بين الكفار تميت القلوب. واللَّه الموفق، وكما شاهدنا من انحراف من ذهب لبلاد الكفر، ومنهم من ساء حاله فصار يوالي أهل الكفر أو فتن بالدنيا أو مدح الكفار، ومنهم من زكَّاهم عن المسلمين أو افتتن بحضاراتهم ودنياهم وأفكارهم الهدامة، فاحذر بارك اللَّه فيك أن يضلوك كما ضلَّ من ضل.

واعلم -بارك اللَّه فيك-:

أن حديث النبي ﷺ: «**إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ ظَهْرَانَيِ الْمُشْرِكِينَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِمَ؟ قَالَ: «**لَا تَرَاءَى نَارهُمَا**».

الذي أخرجه الترمذي (١٦٠٤) والطبراني في «الكبير» (٢/ ٣٠٣) رقم (٢٢٦٤) والبيهقي (٨/ ٢٢٥) من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن جرير عن رسول اللَّه ﷺ.

وقد رواه عن إسماعيل أبو معاوية وتابعه حفص بن غياث عند البيهقي (٨/ ٢٢٦).

وخالفهما أبو خالد الأحمر فرواه عن إسماعيل عن قيس مرسلًا بنحوه.

أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦٩٥٦).

وتابعه -أعني: أبا خالد الأحمر- مروان بن معاوية على الإرسال عند البيهقي (٨/ ٢٢٥).

وتابعه معتمر بن سليمان عند سعيد بن منصور في «السنن» (٢٦٦٣) وعبدة عند الترمذي (١٦٠٥) ومروان عند الشافعي في «المسند (ص٢٠٢) خمستهم أرسلوه كرواية معتمر ومن تابعه.

وقال أبو داود عقب روايته (٢٦٤٥) رواية أبي معاوية الموصولة: «رواه هشيم ومعمر وخالد الواسطي وجماعة لم يذكروا جريرًا».

قلت «محمد»: كأنه يشير إلى ترجيح المرسل.

وقال الترمذي عقب روايته (١٦٠٥) وذكر أن أكثر أصحاب إسماعيل قالوا عن قيس أن رسول اللَّه ﷺ -يعني: مرسلًا-: «وهذا أصح... وأكثر أصحاب إسماعيل قالوا: عن قيس بن أبي حازم أن رسول اللَّه ﷺ... وسمعت محمدًا يقول: الصحيح حديث قيس عن النبي ﷺ مرسل» اهـ.

وحكى ابن عبد الهادي في «المحرر» (٧٧٩) قال: «روي مرسلًا وهو أصح، قاله البخاري والدارقطني [في «العلل» (١٣/ ٤٦٤)] قال: «رواه أبو إسحاق الفزاري ومروان بن معاوية ومعتمر بن سليمان، عن إسماعيل، عن قيس مرسلًا، وهو الصواب». اهـ، وأما تجويد ابن باز للحديث في «فتاويه» (٥/ ١٤) وتصحيح الألباني له فليس

بالصواب -رحمهما اللَّه وعفا عنهما-.

فالصواب مع البخاري والدارقطني والبيهقي والترمذي، وابن عبد الهادي، وأبي داود -في إشارته- أنه مرسل لا موصول، واللَّه أعلم.

وأطلت في ذلك شيئًا يسيرًا لانتشار التصحيح له، وقد أشار العثيمين في شرحه (ص١٠٠) إلى أن الأكثر رووه مرسلًا، ونقل كلام الترمذي عن البخاري فرحمه اللَّه، لكن لم يشر إلى ضعف المرفوع.

وله شاهد ذكره البعض عند أبي داود (٢٧٨٧) والطبراني في «الكبير» (٧/ ٢٥١ رقم ٧٠٢٣) عن سمرة بن جندب عن رسول اللَّه ﷺ قال: «**مَنْ جَامَعَ الْمُشرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ**» وإسناده واه، وإن صح فمعناه أن رسول اللَّه ﷺ قال ذلك لأنه متهم في أنه يكثِّر جمعهم، ويقصد نصرهم ويرغب في دينهم، وإعلال أحمد قاله ابن مفلح في «الفروع» (١١/ ٣٣٢).

وثم معاني أخرى للحديث إن صح منها أنه إذا تضرر المجامع لهم فرسول اللَّه ﷺ بريء، غير مطلوب منه دية له ولا قود. أشار إليه البيهقي في «المعرفة» (١٢/ ١٩٤) عن الشافعي، وثم تفسيرات أخرى له لو صح.

وفي الباب خبر أخرجه النسائي (٢٣٦٠) وابن ماجه (٢٥٣٦) من طريق بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: «قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَتَيْتُكَ حَتَّى حَلَفْتُ أَكْثَرَ مِنْ عَدَدِهِنَّ لِأَصَابِعِ يَدَيْهِ، أَلَّا آتِيَكَ، وَلَا آتِيَ دِينَكَ، وَإِنِّي كُنْتُ امْرَأً لَا أَعْقِلُ شَيْئًا، إِلَّا مَا عَلَّمَنِي اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنِّي أَسْأَلُكَ بِوَجْهِ اللَّهِ بِمَا بَعَثَكَ رَبُّكَ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «**بِالْإِسْلَامِ**» قُلْتُ: وَمَا آيَاتُ الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: «**أَنْ تَقُولَ: أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَى اللَّهِ، وَتَخَلَّيْتُ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، كُلُّ مُسْلِمٍ عَلَى مُسْلِمٍ مُحَرَّمٌ أَخَوَانِ نَصِيرَانِ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مُشْرِكٍ بَعْدَمَا**

يُسْلِمُ عَمَلًا، أَوْ يُفَارِقَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ» وظاهر إسناده الحسن، لا أعلم له علة الآن، وقد جوَّد إسناده ابن باز في «فتاويه» (٤/ ٣٨١) وحسنه الألباني -رحمهما اللَّه-.

وهذا ما فارق المشركين بل جامعهم، ولكن له تأويل ومعناه ليس كمعنى الحديث الأول...

• **وقد ذكر الشيخ العثيمين في شرحه كلامًا حسنًا واقعيًّا أرجو إن نقلته برمته مع طوله أن يكون ذلك حسنًا (ص٩٧ وما بعدها) بتصرف، حيث قسم الإقامة في دار الكفر إلى أقسام، قال:**

القسم الأول: أن يقيم للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه، فهذا نوع من الجهاد فهي فرض كفاية على من قدر عليها بشرط أن تتحقق الدعوة، وألا يوجد ما يمنع منها، أو من الاستجابة إليها؛ لأن الدعوة إلى الإسلام من واجبات الدين، وهي طريقة المرسلين، وقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه في كل زمان ومكان، فقال ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**» كما في «صحيح البخاري» (٣٤٦١).

القسم الثاني: أن يقيم لدراسة أحوال الكافرين والتعرف على ما هم عليه من فساد العقيدة وبطلان التعبد وانحلال الأخلاق، وفوضوية السلوك؛ ليحذر الناس من الاغترار بهم ويبين للمعجبين بهم حقيقة حالهم، وهذه الإقامة نوع من الجهاد أيضًا لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه؛ لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام كما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. لكن لابد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة أعظم منه، فإن لم يتحقق مراده بأن منع من نشر ما هم عليه والتحذير منه فلا فائدة من إقامته، وإن تحقق مراده مع مفسدة

أعظم مثل أن يقابلوا فعله بسب الإسلام ورسول الإسلام وأئمة الإسلام وجب الكف ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٨] ويشبه هذا أن يقيم في بلاد الكفر ليكون عينًا للمسلمين ؛ ليعرف ما يدبروه للمسلمين من المكايد فيحذرهم المسلمون كما أرسل النبي ﷺ حذيفة بن اليمان إلى المشركين في غزوة الخندق ؛ ليعرف خبرهم . كما في «صحيح مسلم» (١٧٨٨) .

القسم الثالث : أن يقيم لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دول الكفر كموظفي السفارات ، فحكمها حكم من أقام من أجله .

فالملحق الثقافي مثلًا يقيم ليرعى شئون الطلبة ويراقبهم ويحملهم على التزام دين الإسلام وأخلاقه وآدابه فيحصل بإقامته مصلحة كبيرة ويندرئ بها شر كبير .

القسم الرابع : أن يقيم لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج فتباح الإقامة بقدر الحاجة ، وقد نص أهل العلم -رحمهم اللَّه- على جواز دخول بلاد الكفر للتجارة ، وآثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم .

القسم الخامس : أن يقيم للدراسة ، وهي من جنس ما قبلها إقامة لحاجة ، لكنها أخطر منها وأشد فتكًا بدين المقيم وأخلاقه ، فإن الطالب يشعر بدنو مرتبته وعلو مرتبة معلميه ، فيحصل من ذلك تعظيمهم والاقتناع بآرائهم وأفكارهم وسلوكهم فيقلدهم إلا من شاء اللَّه عصمته ، وهم قليل ، ثم إن الطالب يشعر بحاجته إلى معلمه فيؤدي ذلك إلى التودد إليه ومداهنته فيما هو عليه من الانحراف والضلال ، والطالب في مقر تعلمه له زملاء يتخذ منهم أصدقاء يحبهم ويتولاهم ويكتسب منهم .

ومن أجل خطر هذا القسم وجب التحفُّظ فيه أكثر مما قبله فيشترط فيه بالإضافة إلى الشرطين الأساسين شروط:

● **الشرط الأول**: أن يكون الطالب على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار، وينظر به إلى المستقبل البعيد فأما بعث الأحداث (صغار السن) وذوي العقول الصغيرة فهو خطر عظيم على دينهم، وخلقهم وسلوكهم، ثم هو خطر على أمتهم التي سيرجعون إليها وينفثون فيها من السموم التي نهلوها من أولئك الكفار كما شهد ويشهد به الواقع، فإن كثيرًا من أولئكم المبعوثين رجعوا بغير ما ذهبوا به، رجعوا منحرفين في دياناتهم وأخلاقهم وسلوكهم، وحصل عليهم وعلى مجتمعهم من الضرر في هذه الأمور ما هو معلوم مشاهد، وما مثل بعث هؤلاء إلا كمثل تقديم النعاج للكلاب الضارية[1].

● **الشرط الثاني**: أن يكون عند الطالب من علم الشريعة ما يتمكن به من التمييز بين الحق والباطل، ومقارعة الباطل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل فيظنه حقًّا، أو يلتبس عليه أو يعجز عن دفعه فيبقى حيران أو يتبع الباطل...

● **الشرط الثالث**: أن يكون عند الطالب دين يحميه ويتحصن به من الكفر والفسوق، فضعيف الدين لا يسلم مع الإقامة هنالك إلا أن يشاء اللَّه، وذلك لقوة المهاجم وضعف المقاوم، فأسباب الكفر والفسوق هناك قوية وكثيرة ومتنوعة، فإذا صادفت محلًّا ضعيف المقاومة عملت عملها.

---

(١) واضرب لذلك طه حسين وقاسم أمين وأضرابهما.

● **الشرط الرابع**: أن تدعو الحاجة إلى العلم الذي أقام من أجله بأن يكون في تعلُّمه مصلحة للمسلمين، ولا يوجد له نظير في المدارس في بلادهم، فإن كان من فضول العلم الذي لا مصلحة فيه للمسلمين أو كان في البلاد الإسلامية من المدارس نظيره لم يجز أن يقيم في بلاد الكفر من أجله؛ لما في الإقامة من الخطر على الدين والأخلاق، وإضاعة الأموال الكثيرة بدون فائدة. . . نعود إلى:

● **القسم السادس**: أن يقيم للسكن، وهذا أخطر مما قبله وأعظم؛ لما يترتب عليه من المفاسد بالاختلاط التام بأهل الكفر وشعوره بأنه مواطن ملتزم بما تقتضيه الوطنية من مودة وموالاة وتكثير عاداتهم، وربما قلدهم في العقيدة والتعبُّد[1].

وكيف تطيب نفس مؤمن أن يسكن في بلاد كفار تعلق فيها شعائر الكفر ويكون الحكم فيها لغير اللَّه ورسوله، وهو يشاهد ذلك بعينه ويسمعه بأذنيه ويرضى به، بل يُنسب إلى تلك البلاد ويسكن فيها بأهله وأولاده ويطمئن إليها كما يطمئن إلى بلاد المسلمين مع ما في ذلك من الخطر العظيم عليه وعلى أهله وأولاده في دينهم وأخلاقهم، هذا ما توصلنا إليه في حكم الإقامة في بلاد الكفر، نسأل اللَّه أن يكون موافقًا للحق والصواب.

* * *

(١) وقد حصل هذا من بعض لاعبي الكرة تأثر بهم في طباعهم لضعف المحل وقوة المهاجم بالطباع.

• قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا».

الشرح:

هذا الحديث أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٦٥٨)، والدارمي في «السنن» (٢٥٥٥)، والبيهقي (٩/ ٣) من طريق أبي هند البجلي قال: قال معاوية: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ به بنحوٍ من ألفاظه، وأبو هند البجلي هذا قال عبد الحق: ليس بالمشهور، وقال ابن القطان: مجهول. وما روى عنه إلا عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، فلا يصح الحديث من هذا الوجه.

وأخرج أحمد (١٦٧١) عن الحكم بن نافع، ثنا إسماعيل بن عياش، عن ضمضم بن زرعة، عن شريح بن عبيد يردُّه إلى مالك بن يخامر، عن ابن السعدي: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا دَامَ الْعَدُوُّ يُقَاتَلُ».

فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص: أنَّ النبيَّ قال: «إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَى أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَلَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلُ»، وهذا إسناد حسن وفيه المعنى.

وله شاهد عن عبد اللَّه بن السعدي عن رسول اللَّه ﷺ بلفظ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا قُوتِلَ الْكُفَّارُ».

أخرجه ابن حبان (٤٨٦٦) وإسناده حسن.

وله طريق آخر عند النسائي (٨٦٥٥) بلفظه -أعني: الذي قبله- ولكن فيه حسان بن عبد اللَّه الضمري ليس بالمشهور والأظهر جهالته، كما أشار ابن القطان في «الوهم والإيهام» (٢/ ٤٤).

وقول الحافظ في «التقريب» عنه: «ثقة» ليس من الصواب بقريب.

وله شاهد عن جنادة بن أبي أمية: أنَّ رجلًا من أصحاب النبي ﷺ قال لبعضهم: «**الْهِجْرَةُ قَدِ انْقَطَعَتْ**»، فاختلفوا في ذلك فانطلقنا إلى النبي ﷺ فقلنا: يا رسولَ اللَّه إنَّ ناسًا يقولون: الهجرةُ قد انقطعت، فقال النبي ﷺ: «**لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا كَانَ الْجِهَادُ**».

أخرجه سعيد بن منصور (٢٣٥٤)، وإسناده ثابت.

والحاصل: أن معنى الحديث صحيح بالطرق.

والتوبة لا تنقطع إلا عند طلوع الشمس من مغربها، إذًا بقيت الهجرة لأماكن الخير من أماكن السوء، ومن أماكن المعاصي إلى أماكن الطاعة . . . إلخ كما تقدم.

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِالْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ مِثْلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالْأَذَانِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ».

الشرح:

ما زال المؤلف يحكي هجرة النبي ﷺ إلى أن استقر بالمدينة وبنى المسجد، ثم توالت الأوامر والتكاليف الشرعية تنزل عليه، فأمر بالزكاة والصيام والحج والجهاد والأذان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك من شرائع الإسلام.

وإن كان بعض الآيات الآمرة بالزكاة نزلت في بعض السور المكية، لكن استقرار تقديرها وذكر مستحقيها وغير ذلك إنما كان بالمدينة عند قيام الدولة الإسلامية.

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى- عن المدة التي قضاها رسول اللَّه ﷺ في المدينة:

«أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-».

الشرح:

أما المدة المذكورة وأنها عشر سنين فذلك تقدم دليله، ثم توفي ﷺ.

● وأما قوله: «وَبَعْدَهَا تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ»:

نعم، وكان بداية ذلك أنه خطب ﷺ فقال: «**إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ**»، قال أبو سعيد الخدري: فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ؟ إِنْ يَكُنِ اللَّهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ العَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ**» أخرجه البخاري (٤٦٦).

● وقد نُعي إليه أجله ﷺ:

فنزل قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [سورة النصر] قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ»... الحديث. أخرجه البخاري (٣٦٢٧).

ثم مرض رسول اللَّه ﷺ.

قالت عائشة رضي الله عنها: «ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**» قُلْنَا: لَا،

هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**». قَالَتْ: فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ ﷺ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**» قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**» قَالَتْ: فَقَعَدَ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**» قُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخْضَبِ**»، فَقَعَدَ، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**» فَقُلْنَا: لَا، هُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسْجِدِ، يَنْتَظِرُونَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِصَلَاةِ العِشَاءِ الآخِرَةِ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا-: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا العَبَّاسُ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ لَا يَتَأَخَّرَ، قَالَ: أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ، فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، قَالَ: فَجَعَلَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ يَأْتَمُّ بِصَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ بِصَلَاةِ أَبِي بَكْرٍ، وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ».

أخرجه البخاري (٦٨٧) ومسلم (٤١٨).

ونظرًا إلى أنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخيَّر، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: «**اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الْأَعْلَى**» فَقُلْتُ: إِذًا لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ.

وهذا في «صحيح البخاري» (٤٤٣٧).

قالت عائشة رضي الله عنها:

«إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيَّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللَّهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ: دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «**أَنْ نَعَمْ**» فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: «**أَنْ نَعَمْ**» فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ».

أخرجه البخاري (٤٤٤٩).

وفي «صحيح البخاري» (٣٦٦٧) قول عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، مَاتَ وَأَبُو بَكْرٍ بِالسُّنْحِ، فَقَامَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَتْ: وَقَالَ عُمَرُ: وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلَّا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ.

جَاءَ أَبُو بَكْرٍ: فَكَشَفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبَّلَهُ، قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُذِيقُكَ اللَّهُ المَوْتَتَيْنِ أَبَدًا، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: أَيُّهَا الحَالِفُ عَلَى رِسْلِكَ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ جَلَسَ عُمَرُ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَقَالَ: أَلا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، وَقَالَ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فَنَشَجَ النَّاسُ يَبْكُونَ، قَالَ: وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ.

وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ بْنُ المُنْذِرِ: لَا، وَاللَّهِ لَا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَا، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ... » الحديث.

لقد بصَّر أبو بكر الناس الهُدى، وعرفهم الحق الذي عليهم وخرجوا به يتلون، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فالحمد لله، وللحديث فوائد له شجون يحتمل مؤلف مستقل لاستخراج الدروس المستفادة، واللَّه الموفق.

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ».

الشرح:

● قوله: «وَدِينُهُ»:

أي: دين محمد ﷺ.

● وقوله: «بَاقٍ»:

أي: يحفظه اللَّه تعالى على هيئته يوم مات ﷺ، القرآن وتفسيره وبيانه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، فحفظ اللَّه القرآن وبيانَه.

وأخرج البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٠٣٧) عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: «**لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**».

ورواية مسلم زيادة: «**وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ**».

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ...**» الحديث أخرجه مسلم.

فالخير باقٍ في الأمة، الدين باقٍ.

فلو أخطأ إنسان في حرف أو شَكْلَة أو سكنة في القرآن لنادى عليه آلاف الصبيان بأنك قد أخطأت.

ولو ذكر المرء حديثًا ضعيف النسبة إلى رسول اللَّه ﷺ أو إلى الصحابة لنادى عليه من بعيد ومن قريب أن قد أخطأت أو كذبت.

ولو ابتدع إنسان بدعة إلا نادى عليه أمة من أهل العلم أن قد أخطأ استك الحفرة وجنيت على نفسك وعلى غيرك.

السنة كذا والبدعة كذا فللَّه الحمد والمنة.

الدين ظاهر وفي المستمسكين به خير وبركة وكفاية وإن كان أهله قلة.

هم قلة، لكن يرفع اللَّه فيهم الدين فقلَّتهم مع اللَّه الكثرة، وضعفهم باللَّه قوة، فلله الحمد على هذه المنة العظيمة، أن أبقى لنا الدين لم يُحَرَّف ولم يُبَدَّل، السنة واضحة والبدعة كذلك واضحة.

الحلال بين والحرام بين، الحق واضح والضلال واضح.

وجعل لمن لم يتضح له أحدهما من الآخر سبيلًا يسهل عليه وهو سؤال أهل الذكر والرجوع لأهل العلم الراسخين، فلله الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا، واللَّه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، وما جعل علينا في الدين من حرج.

● **وقول المؤلف: «وَهَذَا دِينُهُ لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ»:**

هذا هو ما قاله رسول اللَّه ﷺ حيث قال: «**إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ، وَمَنْ بَايَعَ إِمَامًا فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ...**» الحديث. أخرجه مسلم (١٨٤٤). وهذا لازم أمر اللَّه لنبيه ﷺ بالبلاغ.

● وقوله: «لَا خَيْرَ إِلَّا دَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلَا شَرَّ إِلَّا حَذَّرَهَا مِنْهُ»:

هذه صفعة على أم رءوس أهل البدع والغلو والتفريط، فإن الابتداع أو زعم خير فيما لم يدل الناس عليه افتراء ولازمه أن رسول اللَّه ﷺ قصر وأن غير هديه أتم من هديه ﷺ.

فالخير: ما دلنا عليه إشارة أو إيماءً أو صراحة وأعظمه التوحيد.

والشر: ما لم يدل عليه ﷺ لو كان خيرًا لدل عليه وأكبره الشرك كما سيأتي.

فقد تركنا رسول اللَّه ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا ذكر لنا منه علمًا، قال ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ النَّارِ إِلَّا وَقَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَمَا تَرَكْتُ شَيْئًا يُقَرِّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبَاعِدُكُمْ عَنِ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ**» ﷺ.

وقد اعترف المشركون بذلك.

ففي «صحيح مسلم» (٢٦٢) عن سلمان قال: قَالَ لَنَا الْمُشْرِكُونَ إِنِّي أَرَى صَاحِبَكُمْ يُعَلِّمُكُمْ حَتَّى يُعَلِّمَكُمُ الْخِرَاءَةَ، فَقَالَ: أَجَلْ «إِنَّهُ نَهَانَا أَنْ يَسْتَنْجِيَ أَحَدُنَا بِيَمِينِهِ، أَوْ يَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالْعِظَامِ» وَقَالَ: «**لَا يَسْتَنْجِي أَحَدُكُمْ بِدُونِ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ**».

علَّمنا ﷺ كيف نتكلَّم «انتقاء الألفاظ» كيف نعاشر، كيف نفهم، كيف نتعامل، مما لو جمعه جامعٌ لحاز سفرًا ضخمًا.

فاللهم اجْزِه عنَّا خير ما جازيتَ نبيًّا عن أمته، ورسولًا عن قومه، صلى اللَّه عليه وعلى إخوانه من النبيين أجمعين ورضي عن أصحابه أجمعين.

* * *

ثم قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ :

«وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ : التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُهُ اللَّهُ وَيَأْبَاهُ» .

الشرح :

يرشد المؤلف إلى نوع الخير الذي دلنا عليه ﷺ ونوع الشر الذي حذرنا منه .

وأصل الأصول التي دل رسول اللَّه ﷺ عليها التوحيد ونبذ الشرك، ثم بعد ذلك دلنا رسول اللَّه ﷺ على ما يحبه اللَّه ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة .

وحذرنا من كل ما يبغضه اللَّه ويكرهه من الأعمال الظاهرة والباطنة .

هذا ملخص الخير الذي دلنا عليه رسول اللَّه ﷺ والشر الذي حذرنا منه وقال : «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي**»، وهو حديث حسن خرَّجناه في غير هذا الموطن .

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ اللَّهُ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الشرح:

رسول اللَّه ﷺ للناس جميعًا والإنس والجن، فمعنى الثقلين الإنس والجن، وذكر هذه الآية.

ومثلها قوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمن: ٣٣] كثيرًا، وهي دليل على أن القرآن الذي نزل على محمد ﷺ مخاطَب به الإنس والجن.

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وغير هذه الآيات، ولا خلاف أعلمه أنه أرسل إلى الثقلين.

وفي «صحيح البخاري» (٣٣٥) عن جابر بن عبد اللَّه أن النبي ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**».

وثم أدلة على هذا واضحة على تقرير هذا.

لكن هل أرسل ﷺ أيضًا إلى الملائكة؟ اللَّه أعلم.

لكن الملائكة يجلسون في مجالس العلم، لكن هل يجلسون يتعلمون أم لحف الناس وغشيانهم بالرحمة. . . إلخ.

على كل ما أمرنا بالتنقيب عن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾:

وجه الدلالة منها: أن المخاطب بها الجن والإنس.

وكلمة ﴿ٱلنَّاسُ﴾ تطلق على الإنس والجن.

ودليل هذا: قول عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «كان ناسٌ من الإنس يعبدون ناسًا من الجنِّ، فأسلم الجنُّ، وتمسَّكَ هؤلاء بدينهم فأنزل اللَّه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ [الإسراء: ٥٦]».

أخرجه البخاري (٤٧١٤)، ومسلم (٣٠٣٠) وليس عند مسلم موطن الشاهد.

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَكْمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّينَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُ تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]».

الشرح:

هذه الآية دليل على أن من أحدث في أمر الأمة شيئًا فقد ألزم بلسان حاله أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، أو قصر في البلاغ فيها.

وورد عن الإمام مالك أنه قال: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا خان الرسالة؛ لأن اللَّه يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينًا لا يكون اليوم دينًا».

حكاه عنه الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٦٦) وغيره.

وهذه الآية دليل قوي على ذم البدع.

- **وقد تواترت الأدلة الذامَّة للبدع بكل حال:**

منها: قوله ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ، فَهُوَ رَدٌّ**».

أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) واللفظ له عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا... وغير ذلك مما ذكرته في غير هذا الموطن.

فما قبض اللَّه محمدًا ﷺ حتى أكمل دينه وتمت بذلك النعمة، وما هو في الكتاب والسنة فقد رضيه رسول اللَّه ﷺ، واللَّه الموفق.

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ نزلت على رسول اللَّه ﷺ بعرفة،

كما في «صحيح البخاري» (٤٥) وغيره.

وقال رسول اللَّه ﷺ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ**». أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) وابن ماجه (٤٣) وغيره بسندٍ ثابت.

والآية التي ذكرها المؤلف أخرج البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧) عن طارق بن شهاب، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنَّ رجلًا من اليهود قال: يا أميرَ المؤمنين آيةٌ في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أيُّ آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم، والمكان الذي نزلت فيه على النبيِّ ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة».

وهذه الآية أصلٌ في التحذير من البدع وأهلها، إن لسان حالهم يقول: إن الدين ما كمُل، فهم يبتدعون ليكملوا الدين.

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١، ٣٠]».

الشرح:

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

لئلا يقول بعض الناس -كما يظن بعض أهل البدع كالصوفية- أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ حيٌّ، وأنهم يحضر معهم مجالسهم التي يطلقون عليها الحاضرة.

دلل المؤلف على ذلك فذكر الدليل على موته ﷺ.

وقد تقدم ذكر أبي بكر لهذه الآية وغيرها عقب وفاته ﷺ فسكت الناس وأزعنوا.

وهذا أظهر من كثرة التدليل عليه.

وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللَّهُ ﷻ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ**».

وقد أخرجه أبو داود (٢٠٤١) بسندٍ حسن، فدلَّ هذا على أنَّ رسول اللَّه ﷺ ميتٌ خلافًا لأهل البدع الذين يعتقدون أن رسول اللَّه ﷺ حيٌّ.

فلولا أنه ﷺ ميت ما رد اللَّه عليه روحه.

وأما كون الأنبياء أحياء في قبورهم؛ فهي حياة أخرى لا تخضع لمقاييس البشر اللَّه أعلم بكيفيتها كما حررتُ ذلك في غير هذا الموطن.

واللَّه الموفق.

والناس يختصمون عند ربهم واللَّه يقضي بينهم بحكمه سبحانه، واللَّه الموفق.

وهذه الآية التي ذكرها المؤلف دليل على موت الخضر عليه السلام خلافًا لبعض الصوفية الذين يزعمون أن الخضر حي، وأنه يأتي يُخضِّر الزرع، وهذا جهل يؤدي إلى شرك، والعياذ باللَّه.

فالذي بيده ملكوت كل شيء هو، يخرج الخبء في السموات والأرض هو اللَّه.

لكن عقيدة أولئك الضُّلَّال الجُهَّال ليست كعقيدة الهدهد الذي قال لسليمان عليه السلام: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٢٥]!!

فإذا كان رسول اللَّه ﷺ وهو سيد ولد آدم، وأول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة وبيده لواء الحمد آدم فمن سواه من النبيين تحت لوائه... قد مات، فغيره لابد أن يموت كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

فلا محمد بن الحسن العسكري حيٌّ ولا الخَضِر حيٌّ.

ومما يدل على موت الخضر: أنه لو كان حيًّا للزمه أن يأتي رسول اللَّه ﷺ يبايعه، أما ولم يحصل، ولم يقل رسول اللَّه ﷺ إنه حي، فإنه ميت.

وفي «صحيح مسلم» **(٢٥٣٨)** عن جابر بن عبد اللَّه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «**تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟، وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ**».

فلو كان الخضر في زمن رسول اللَّه ﷺ فإنه بعد مائة عام يكون ميت، وبالفعل من هذا اليوم بعد مائة عام لم تكن نفس منفوسة إلا وقد ماتت، واللَّه الموفق.

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُوا يُبْعَثُونَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً﴾ [طه: ٥٥]، **وَقَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]».

الشرح:

هذا معلوم ضرورة في كل الشرائع.

الناس يموتون يراهم الناس، وهي حقيقة لا ينكرها أحد من العقلاء.

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]

يُبعثون للحساب والجزاء.

ثم ذكر المؤلف الآيتين الدالتين على ما قال، حاصل معناهما أنه سبحانه خلق الناس من طين من الأرض ثم يرجعهم إليها، وعند النفخ في الصور فإذا هم قيام ينظرون من الأجداث يخرجون إلى ربهم ينسلون، يقولون: ﴿يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢].

فثلاثة أطوار:

الأول: الخلق من تراب.

والثاني: إعادتهم فيها.

والثالث: الإخراج تارة أخرى للحساب، فمن أنكر هذا فهو كافر كما سيقول المؤلف، بل غير عاقل.

وقد قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٦].

فنسألك اللهم السلامة في هذا الموقف، واللَّه الموفق.

* * *

● قال المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-:

«وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ. والدليل قول تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، ومن كذب بالبعث كفر والدليل قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧]».

الشرح:

يقرِّر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مذهب أهل السنة والجماعة الذي لا ينكر في شريعة من الشرائع ولا بعقل ولا بفطرة.

وهو أن الناس بعد أن يُبعثوا يحاسبون، ثم يجازيهم اللَّه تعالى على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وكما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

ثم استدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]، وإنما لم يذكر «الذين أساءوا بالسوء» كما قال: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ ليعلم الإنسان فضل اللَّه، فإن قوله:

﴿بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ دليل على التكثير والتضخيم، وكذا «السوء» فعند ذكر المجازاة بالحسنى نكَّرها لتدل على التضخيم للإحسان الذي يجزي اللَّه به، بخلاف السوء، فإنه يجازي المرء على عمله فقط، بل يعفو عن كثير، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

فلله الحمد والمنة.

فالآيات التي ذكره المؤلف تدل على وجوب الإيمان بالبعث والحساب.

وفي «صحيح البخاري» (٢٠٩١) عن خباب ﷺ قال: كُنْتُ قَيْنًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، قَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ، ثُمَّ تُبْعَثَ، قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ أُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧-٧٨]، وأخرجه مسلم أيضًا (٢٧٩٥).

فالذي ينكر البعث الكفار.

وقد قال تعالى عن بعض الكفار: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

وقد أخرج ابن أبي حاتم (١٨١٢٦) والضياء في «المختارة» (٨٢) من طريق علي بن الحسين بن الجنيد حدثنا محمد بن العلاء حدثنا عثمان بن سعيد الزيات عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ﷺ قال: «أَنَّ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ أَخَذَ عَظْمًا مِنَ الْبَطْحَاءِ فَفَتَّهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ

لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُحْيِي اللَّهُ تَعَالَى هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللَّهُ ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ**» قَالَ: وَنَزَلَتِ الْآيَاتُ مِنْ آخر «يس»».

وظاهر إسناده الصحة، لكن قال ابن كثير عقبه (٦/ ٥٢٩): ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن هشيم عن أبي بشر عن سعيد بن جبير فذكر هو ولم يذكر ابن عباس يعني مرسلًا.

فهذا خلاف على الوصل والإرسال.

لكن رواه الحاكم (٢/ ٤٦٦) من طريق إسماعيل بن محمد بن الفضل بن محمد الشعراني نا جري ثنا عمرو بن عون ثنا هشيم ثنا أبو بشر به موصولًا، وقال: «هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» فهذا يقوي الموصول، وبه يصح السند، واللَّه أعلم.

وقد أخرج أحمد (١٧٨٤٢) وابن ماجه (٢٧٠٧) وابن سعد (٧/ ٢٩٨) وابن منده في «التوحيد» (٨٨) والحاكم وغيرهم بإسناد صحيح من طريق بُسْرِ بن جَحَّاش القُرشي رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَزَقَ يَوْمًا فِي كَفِّهِ، فَوَضَعَ عَلَيْهَا أُصْبُعَهُ، ثُمَّ قَالَ: «**قَالَ اللَّهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ، مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ وَلِلْأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ، قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ**».

وصحَّح إسناده الحافظ في «الإصابة» (١/ ٤٢٣) مع أنه قال في أحد رواته (عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أبو سلمة الحمصي): مقبول -يعني إن توبع وإلا فليِّن- وهو ثقة، وثَّقه الذهبي وهو من شيوخ حريز بن عثمان، وشيوخه كلهم ثقات، وقد روى عنه ثلاثة.

ولما قال ابن القطان في «الوهم» (٤/ ١٠٩): «لا يعرف» ردَّ عليه الذهبي في كتابه (ص٤٨) عند ردِّه على ابن القطان وقال: «قلت: شيوخ حريز كلهم ثقات».

وقال ابن الملقن في «البدر المنير» (٢/ ٢٠٩): «عبد الرحمن بن ميسرة ليس بمجهول، بل هو معروف ثقة . . . ارتفعت جهالة عينه وحاله»، وردَّ على ابن القطان دعواه.

وقد خلط مغلطاي في «إكماله» (٨/ ٢٣٩) بينه وبين الذي بعده عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمي أبي مسيرة المصري، فجعلهما واحدًا. والصواب التفصيل بينهما كما فعل المزي وابن حجر.

- **وقد ذكر المؤلف مُعْتَقَدًا آخر من معتقدات أهل السنة.**

وهو «مَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ».

ذلك لأنه أنكر معلومًا من الدين بالضرورة.

وفي حديث جبريل ذكر رسول اللَّه ﷺ له الإيمان فقال: «**وَأَنْ تُؤْمِنَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ...**».

وقد قال ابن عمر في منكر القدر ما قد تقدم.

فكذلك منكر البعث.

فيعتبر مكذب للآيات التي تفيد لزوم الإيمان بالبعث.

ثم ذكر المؤلف الآية الصريحة في تكفير من كذب بالبعث، فقال: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

فسمَّاهم اللَّهُ كفارًا.

فقال سبحانه كذلك: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

فسمَّاهم كفارًا.

وقد ساق اللَّه حالهم في قوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْۖ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١١- ١٦].

فقوله: ﴿يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ حالهم.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يفيد تشابه قولهم مع قول الكفار.

و﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ حجبهم عن رؤية اللَّه ولا يحجب عن رؤيته إلا الكفار، ولو كانوا مسلمين ما حجبوا عن رؤية اللَّه . . .

ثم تصليتهم في الجحيم في قوله: ﴿لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ يؤيد استواءهم في الجحيم مع الكفار، فالاستدلال بالآية من وجوه على أن منكر البعث كافر:

أولًا: أن أمر البعث تواتر بالنقل عن الأنبياء والمرسلين في الكتب الإلهية والشرائع السماوية وتلقته أممهم بالقبول فكيف تنكرونه وأنتم تصدقون بما ينقل إليكم عن فيلسوف أو صاحب مبدأ أو فكرة وإن لم يبلغ ما بلغ الخبر عن البعث لا في وسيلة النقل ولا في شهادة الواقع.

ثانيًا: أن أمر البعث قد شهد العقل بإمكانه، وذلك من وجوه:

١- كل أحد لا ينكر أن يكون مخلوقًا بعد العدم، وأنه حادث بعد أن لم

يكن فالذي خلقه وأحدثه بعد أن لم يكن قادر على إعادته بالأولى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

٢- كل أحد لا ينكر عظمة خلق السموات والأرض لكبرهما وبديع صنعهما، فالذي خلق السموات والأرض قادر على خلق الناس وإعادتهم بالأولى، قال اللَّه تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨١ - ٨٣].

٣- كل ذي بصر يشاهد الأرض مجدبة ميتة النبات فإذا نزل المطر عليها أخصبت وحيي نباتها بعد الموت، والقادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم، قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ثالثًا: أن أمر البعث قد شهد الحس والواقع بإمكانه فيما أخبرنا اللَّه تعالى به من وقائع إحياء الموتى، وقد ذكر اللَّه تعالى من ذلك في سورة البقرة خمس حوادث منها قوله: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ

وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

رابعًا: أن الحكمة تقتضي البعث بعد الموت لتجازى كل نفس بما كسبت -وذلك في الآية التي ذكرها المؤلف: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ [النجم: ٣١]- ولولا ذلك لكان خلق الناس عبثًا لا قيمة له ولا حكمة منه، ولم يكن بين الإنسان وبين البهائم فرق في هذه الحياة، قال اللَّه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنين: ١١٥، ١١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٣٨ - ٤٠].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٧].

فإذا بينا هذه البراهين لمنكري البعث وأصروا على إنكارهم فهم مكابرون معاندون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

* * *

• وقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَرْسَلَ اللَّهُ جَمِيعَ الرُّسُلَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]».

الشرح:

المؤلف في هذه الفقرة يبين الفائدة من إرسال الرسل أنهم رحمة من اللَّه لئلا يقول قائل: ما جاءنا من بشير ولا نذير ولا أحد، فلله الحجة البالغة سبحانه سبحانه.

فلا يبقى لمقصِّر حجة بعد إرسال الرسل -عليهم الصلاة والسلام-، والأنبياء شهود يوم القيامة على قومهم.

ورسول اللَّه ﷺ شهيد على كل هؤلاء كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١-٤٢].

أرسل اللَّه الرسل يبشرون من يطعهم بالجنة، ويخوفون وينذرون من يعصيهم النار كما ذكر المؤلف الآية الدالة على ذلك في قوله: ﴿مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

أرسل اللَّه الرسل ليحكموا بين الناس بالحق والعدل.

هذه أعظم العلل التي أرسل اللَّه الرسل -عليهم الصلاة والسلام- من أجلها، واللَّه الموفق.

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

الشرح:

ذكر المؤلف دليلًا على أن نوحًا هو أول الرسل -عليهم الصلاة والسلام- واستدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فدل على أنه أول رسول إلى الأرض.

ويؤيد ذلك -وأصرح في الدلالة-: ما في حديث الشفاعة الطويل أن آدم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يأتيه الناس يطلبون منه أن يشفع لهم عند اللَّه فيقولون: «**أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ. وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نُوحًا فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ...**» الحديث. أخرجه البخاري (٤٤٧٦) ومسلم (١٩٣).

فهذا صريح في أن أول رسول أرسله اللَّه إلى الأرض برسالة هو نوح، فمن قال إنه شيث أو ما شابه ذلك؛ فقد خالف هذا النص. فتنبَّهْ.

فقول بعضهم: إنه إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو إنه شيث بن آدم، قول غير صحيح؛ بل هو كذب أصلع، فتنبه بارك اللَّه فيك، ولا تكرره فهو مخالف للنص النبوي المتقدم الدال على أن أولهم نوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

- **وأما دليل أن آخرهم محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فقوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقوله ﷺ: «...**وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي**...» أخرجه البخاري (٣٤٥٥) ومسلم (١٨٤٢).

وقوله: «**لِي خَمْسَةُ أَسْمَاءٍ: أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذي يَمْحُو اللَّهُ بِي الكُفْرُ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدِمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ**».

أخرجه البخاري (٣٥٣٢) ومسلم (٢٣٥٤).

ومعنى العاقب: أي الذي ليس نبي بعده.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «...**فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ آخِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ مَسْجِدَهُ آخِرُ الْمَسَاجِدِ**...» الحديث. أخرجه مسلم (١٣٩٤).

فمن ادَّعى النبوة بعده فهو كذاب.

وقد ادَّعاها مسيلمة الكذاب.

فجعل اللَّه علمًا عليه أنه لو قيل: مسيلمة، أو أضيف إلى ذلك اسم آخر لا يعرفه أحد، ولا يُعرف إلا إذا قلت: «مسيلمة الكذاب» آية جعلها اللَّه تعالى فيه قرن اسمه بالكذب، وقد خذله اللَّه، كأبي جهل وأبي لهب، فلو ذكر اسم واحد منهما لا يكاد يُعرف إلا إذا ذكرت كنيته أبا لهب وأبا جهل.

فكلُّ من ادعى النبوة بعده ﷺ فهو كذاب كافر مكذِّب لرسول اللَّه ﷺ والقرآن، إلا أن يكون معتوهًا أو مجنونًا لا عقل له فليعالج.

وأما آدم عليه السلام: فلا يقال هو أول الرسل كان على وجه الأرض؛ لأنه كان نبيًّا ولم يكن رسولًا.

وقد أخرج ابن حبان (٦١٩٠) بإسنادٍ صحيح عن أبي أمامة أَنَّ رَجُلًا

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ مُكَلَّمٌ**». قَالَ: فَكَمْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «**عَشْرَةُ قُرُونٍ**».

فكان عليه السلام نبيًّا ولم يكن رسولًا، أما أول رسول أرسل إلى الأرض فهو نوح عليه السلام لما تقدم، لا هو إدريس ولا هو شيث ولا غيرهما. واللَّه الموفق.

* * *

● قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهَا رَسُولًا، مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَافْتَرَضَ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ».

الشرح:

نعم قد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وهذا النذير يأمر الناس بالبر والتقوى، والعمل الصالح.

وكل الأنبياء يدعون إلى شيء ثابت هو الأمر بعبادة اللَّه واجتناب الطاغوت كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. فكلمة «كل» دالة على العموم.

كذا افترض على جميع العباد الكفر بالطاغوت.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وقال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكذا عاد، وكذا شعيب، وكذا صالح عليهم السلام.

والطاغوت من الطغيان.

منهم من قال: الطاغوت: الساحر.

ومنهم من قال: الكاهن.

ومنهم من قال: الظالم.

ومنهم من قال: شمول الطاغوت للجميع.

فكلٌّ من عبد وهو راضٍ شيطان أو ظالم أو كافر، وكذلك الوثن. . . .

واعلم -علمني اللَّه وإياك- بقوله ﷺ الذي أخرجه مسلم (١٨٣): «... **إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ، فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يُعْبَدُ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.**

حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغُبَّرِ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟

قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ: كَذَبْتُمْ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟ قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟

فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى، فَيُقَالُ لَهُمْ مَا كُنْتُ تَعْبُدُونَ؟

قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟

فَيَقُولُونَ: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا، فَاسْقِنَا، قَالَ: فَيُشَارُ إِلَيْهِمْ أَلَا تَرِدُونَ؟

فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ».

فنعوذ باللَّه من النار ومن عذاب النار، إنه نعم المولى ونعم النصير.

والآية التي ذكرها المؤلف تدل على أن اللَّه أرسل جميع الرسل بثلاثة أشياء أصلية في دعوتهم:

أولًا: الأمر بالعبادة للَّه وحده لا شريك له.

ثانيًا: فرضية اجتناب الطاغوت على الأمم جميعًا.

ثالثًا: أن أصل الدين الذي أتى به جميع الأنبياء واحد.

وثَمَّ نصوص كثيرة في القرآن والسنة تدل على ذلك، ليس هذا موطن الإسهاب فيها.

* * *

• قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

الطَّاغُوتُ: مَا تَجَاوَزُ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ».

الشرح:

• أما قوله عن ابن القيم: «رَحِمَهُ اللَّهُ»:

فهذا أدب من آداب أهل العلم مع بعضهم أدب وترَحُّم وترضِّي عنهم في الدنيا وهو في الآخرة على سرر متقابلين.

فهذا من بركة العلم.

وقد أخرج القاضي عياض في «الإلماع» (ص٢٢٦ - ٢٢٧) بإسنادٍ صحيح قال: حدثنا القاضي أبو علي الصرفي قال: سمعتُ شيخنا أحمد التميلي الحنبلي يقول: يقبح بكم أن تستفيدوا منا ثم لا تذكرونا ولا تترحموا علينا.

وقد قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومن لم يشكر الناس لم يشكر اللَّه، ولذا أودعت فصلًا بمثل هذا في كتابي «طالب العلم حقوقه وآدابه» لأحذر من سوء أدبٍ يكون من المستفيدين الذين هم أشباه الثعابين، يمصُّون الدماء يستفيدون بها، ثم ينفثون سمومهم ليقتلوا من استفادوا منه، عياذًا باللَّه من ذا الخلق الذميم.

وقد ذكر أثر أحمد التميلي الحنبلي هذا ابن المقرئ في كتابه «أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض» (ص٢٤٠) ثم قال عقبه: «فرحم اللَّه

جميع من أخذنا عنه من شيوخنا وغيرهم» اهـ.

وزاد ابن بشكوال في كتابه «الصلة» (ص١٤٦) بعد ذكر مثل ما قال ابن المقرئ وزاد: «وغفر لهم».

وقال أبو الحسن النباهي المالقي الأندلسي هذا الأثر في كتابه «تاريخ قضاة الأندلس» (ص١٠١) ثم قال كما قالوا: فرحم اللَّه جميع شيوخنا ومن استفدنا منه علمًا، وجعلنا في الجنة على سرر متقابلين.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

فكل طالب علم يستفيد من شيخ ينبغي أن يترحم عليه.

أما قول ابن القيم هذا فقد ذكره بنصه في «إعلام الموقعين» (١/ ٤٠) وزاد: «فطاغوت كلِّ قوم من يتحاكمون إليه غير اللَّه ورسوله أو يعبدونه من دون اللَّه أو يتبعونه على غير بصيرة من اللَّه، أو يطيعون فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة اللَّه إلى عبادة الطاغوت.

وعن التحاكم إلى اللَّه وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطاغوت.

عن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.

وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد معًا...

وضرورة ابن القيم لم يقصد المقلِّد الذي يقلِّد أهل العلم فيما لم يتيسَّر

له علمه ولم يستطع فهمه . . . .

فبعضهم يفسر الطاغوت : بالشيطان أو أعوانه .

فالمعنى : احذروا أن يصدوكم عن عبادة اللَّه وطاعته .

ومنهم من قال : هو كلُّ معبود دون اللَّه كالشيطان والصنم والكاهن ، و . . .

ولذلك كانت الطاعة المطلقة هي للَّه ولرسوله ﷺ ، أما بقية الخلق فلابد من القيد ، الطاعة في الطاعة فقط (في المعروف) ، وأما في المعصية فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

فاللَّه تعالى يقول : ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء : ٥٩] .

لكن عند التنازع ، إنما يرد الأمر إلى اللَّه ورسوله ، قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقال ﷺ لأمير أمَّره فأمر الناس أن يفعلوا ما فيه معصية : «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**» . أخرجه البخاري (٤٣٤٠) ومسلم (١٨٤٠) .

فالسمع والطاعة للأمراء أنفع سواء أطاعوهم خوفًا منهم لقوة بطشهم ، أم أطاعوهم إيمانًا ؛ لأن اللَّه قد أمر بذلك ورسوله أمر بذلك[1] .

• **وقد قَسَّم الشيخ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح الأصول الثلاثة» (ص١١١) حالات الناس مع حكامهم في مسألة الطاعة إلى حالات أربع :**

---

(١) وأعني بالطاعة الطاعة في الطاعة لا الطاعة المطلقة ، فإن هذا مذهب المرجئة عكس الخوارج الذين يسقطون إماراتهم للمعصية ، وإن لم تكن كفرًا . ومذهب أهل السنة وسط بين المرجئة والخوارج «**الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**» ، لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

الأولى: أن يقوى الوازع الإيماني والرادع السلطاني وهذا أكمل الأحوال وأعلاها.

الثانية: أن يضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني، وهذا أدنى الأحوال وأخطرها على المجتمع على حكامه ومحكوميه؛ لأنه إذا ضعف الوازع الإيماني والرادع السلطاني حصلت الفوضى الفكرية، والخلقية والعلمية.

الثالثة: أن يضعف الوازع الإيماني ويقوى الرادع السلطاني، وهذه مرتبة وسطى؛ لأنه إذا قوى الرادع السلطاني صار أصلح للأمة في المظهر، فإذا اختفت قوة السلطان فلا تسأل عن حال الأمة وسوء عملها.

الحالة الرابعة: أن يقوى الوازع الإيماني ويقوى الرادع السلطاني فيكون المظهر أدنى منه في الحال الثالثة فيما بين الإنسان وربه أكمل وأعلى» اهـ.

قلت «محمد»: والملخص: أن قوة السلطان هي التي تضبط الظاهر - في الجملة- فإذا كانت قوة إيمان وقوة سلطان فلا تسأل عن مقدار الخير في هذه السلطنة أو الخلافة.

وأما إذا ضعف السلطان فالشر حاصل، ولابد سوءا كان يوجد وازع إيماني عند الكثير أم لا، وإن كان في وجود قوة الإيمان الفساد أقل لكن لابد من وجوده.

ولذلك كانت الإمارة والسلطان بالقوة الرادعة لا بالإيمان وحده.

لما قال أبو موسى الأشعري: «وإن الملك ما غُلب عليه بالسيف».

أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٤/ ١١٣) بسندٍ صحيح.

ولذلك بايع ابن عمر لعبد الملك لما ظهرت قوته، ولم يكن بايع لابن الزبير ولا آل مروان لعدم ظهور القوة لأحدهما على الآخر، وللفرقة فكان هؤلاء يظهرون مرة وهؤلاء يظهرون أخرى وكان يحاول أن يكون مع من غلب كما قررنا ذلك في غير هذا الموطن في «التوضيحات الجلية» وغيره. . .

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُءُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللَّهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ».

الشرح:

ذكر المؤلف هنا أن الطواغيت كثيرة لكنه ذكر رءوسهم:

- **أولهم: إبليس -لعنه اللَّه-.**

فهو من أصول الشر، أو هو أصل الشر وأصل كل فتنة، يلقى بنصيب في كل شر وفتنة وبلية-لعنه اللَّه-، وذلك من أول خلق آدم ﷺ أو من أول ما امتنع من السجود لآدم ﷺ.

- **قال: «وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ»:**

فكل من عُبد وهو راض كفرعون، والنمرود صاحب إبراهيم عليه السلام، وهرقل سجد له الناس وهو راضٍ.

فالأول قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، قال تعالى عن قومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤]؛ ففرعون كان طاغوتًا أمر الناس بعبادته وطاعته في الشرك، فأطاعوه وهو راض بذلك بل دعا الناس إلى ذلك.

وكذا النمرود يوم أن قال لإبراهيم عليه السلام وحاجه في ربه سبحانه: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فأفحمه إبراهيم ﷺ بحجته التي آتاه اللَّه إياها

على قومه، وقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

فالنمرود كان طاغوتًا عبده الناس وهو راض بذلك بل دعا الناس إلى ذلك.

فمن عُبد وهو راض فهو طاغوت وجب الكفر به كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وسيورد المؤلف هذه الآية بعد ذكر رءوس الطواغيت، ونعلق عليها هناك -إن شاء اللَّه-.

وأنكر اللَّه تعالى على من يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل من قبله أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، فمن لم يكفر بالطواغيت فهو دَعي في دعواه الإيمان بما أنزل اللَّه على محمد ﷺ.

● **وقول المؤلف: «وَهُوَ رَاضٍ»:**

احتراز عن عبادة الصالحين الذين لا يرضون أن يعبدهم الناس؛ لأنهم غير راضين بذلك.

فأخرج الصالحين ممن عبدوا، فليسوا بطواغيت.

وقد عُبد عيسى بنُ مريم عليه السلام وهو غير راض قطعًا، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧].

وعُبد الخمسة الذين كانوا قبل نوح عليه السلام والذين قال بعض الكفار لبعضهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ قال تعالى: ﴿وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ﴾ [نوح: ٢٣-٢٤].

وعُبد الحسين بن علي رضي الله عنه وعلي بن أبي طالب عبدهما بعض الروافض حتى سمى بعضهم ولده بـ«عبد الحسين» فهؤلاء عُبدوا ولكن كانوا غير راضين بذلك فلا يلحقهم الذم الذي ذكره المؤلف -رحمه اللَّه تعالى-.

● **والرابع: مَنِ ادَّعى شيئًا من علم الغيب كان طاغوتًا:**

لأن اللَّه تعالى انفرد بذلك ولم يطلع على ذلك إلا من ارتضى من رسول.

فالمنازع في هذا كأنه ينازع فيما يختص بالربوبية.

وقد قال سبحانه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧].

وقال عن رسول اللَّه ﷺ: ﴿وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولما مات عثمان بن مظعون المهاجر مع رسول اللَّه ﷺ: وقالت امرأة يقال لها: أم العلاء -امرأة من الأنصار بايعت النبي ﷺ- وقد دخل عليه رسول اللَّه ﷺ فقالت: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ: لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ؟**» فَقُلْتُ: بِأَبِي

أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ؟ فَقَالَ: «**أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي...**» الحديث. أخرجه البخاري (**٣٩٢٩**)، فلا يجوز دعوى شيء من علم الغيب بغير دليل.

وإذا كان رسول اللَّه ﷺ وهو من هو سيد ولد آدم «**مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ مَا يُفْعَلُ بِي**»... وأنه لا يعلم الغيب فكيف بغيره ممن هو دونه.

وهؤلاء جويريات يضربن بالدف في عرس وقالت جارية منهن: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ**». وهو في «صحيح البخاري» (**٤٠٠١**) من حديث الربيع بنت معوذ.

فهذه أدلة على أن اللَّه تعالى منفرد بعلم الغيب.

وقد قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وأمر اللَّه رسول اللَّه ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فمن ادعى شيئًا من علم الغيب، كالسحرة والمنجمين والعرافين وغيرهم فهو طاغوت؛ لأن الغيب لا يعلمه إلا اللَّه.

قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

فمن ادَّعى علم الغيب فهو طاغوت ينازع رب العزة والجلال في خصوصياته.

ولذلك كان يحرم الجزم لأحدٍ بجنة أو بنار إلا بالوحي؛ لأن ذلك من

التألي على اللَّه في قول ما لا علم له إلا عن طريق الوحي.

فلا يجزم لمعين بجنة ولا بنار ولا بشهادة إلا إذا شهد له الوحي فإن كان المرء مادحًا أحدًا فليقل أحسبه كذا واللَّه حسيبه فلا أزكي على اللَّه أحدًا.

كما بينت دلائل ذلك في غير هذا الموطن، واللَّه الموفق.

والمقصود: أن علم الغيب المطلق لا يعلمه إلا اللَّه، اللَّه اختص به دون غيره لكن قد يعلمه بعض من ارتضى من رسول فيكون النبي يعلم بعض الغيب فهو علم نسبي.

كما أن الساحر قد يعلم أشياء مما تسمَّعت به الشياطين من استراق السمع يأخذه الجني فيلقيه في أُذن الساحر ويكذب الساحر معه.

كما في «صحيح البخاري» (٣٢١٠) ومسلم (٢٢٢٨) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أَنَّهَا سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَنْزِلُ فِي العَنَانِ، وَهُوَ السَّحَابُ، فَتَذْكُرُ الْأَمْرَ قُضِيَ فِي السَّمَاءِ فَتَسْتَرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ فَتَسْمَعُهُ فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ**».

وفي رواية عند مسلم (٢٢٢٨): «... **تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْجِنِّ يَخْطَفُهَا الْجِنِّيُّ فَيُقِرُّهَا فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ قَرَّ الدَّجَاجَةِ فَيَخْلِطُونَ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ كَذْبَةٍ**».

ووصف عمل مسترق السمع عند البخاري (٤٧٠١) فراجعه.

* * *

• **قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن الخامس والأخير:**

«وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ».

الشرح:

• **قوله: «وَمَنْ حَكَم...» إلخ:**

أي: جعل من حكم بغير ما أنزل اللَّه طاغوتًا أتم به رءوس الطواغيت الخمسة.

أوَّلها: إبليس -عليه لعنة اللَّه-.

ثانيها: من عُبد وهو راض.

ثالثها: ومن دعى الناس لعبادته.

رابعها: من ادعى شيئًا من علم الغيب.

خامسها: من حكم بغير ما أنزل اللَّه.

فهؤلاء رءوس الطواغيت.

والحكم بغير ما أنزل اللَّه من توحيد الربوبية؛ لأنه تنفيذ لحكم اللَّه الذي هو من مقتضى ربوبيته وكمال ملكه وتصرفه، ولهذا سمى اللَّه تعالى المتبوعين في غير ما أنزل اللَّه تعالى أربابًا لمتبعيهم فقال: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

فسمَّى اللَّه المتبوعين أربابًا حيث جُعلوا مشرِّعين مع اللَّه تعالى، وسمَّى المتَّبعين عُبَّادًا حيث أنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم.

والنظر في الفقرة الأخيرة التي قالها المؤلف عن الطواغيت إنما يكون في عدة جهات.

الأولى: الحث على الحكم بما أنزل اللَّه.

الثانية: إذا قلنا بأن الحكم بغير ما أنزل اللَّه طاغوتًا إذ قد حلَّ هذا الحكم محلَّ حكم الذي خلق وسوَّى ودبر وقدر فهدى... فهو حكم منازع لحكم ملك السموات والأرض في ملكه.

فهل كل حاكم حكم بغير ما أنزل اللَّه يصبح طاغوتًا كافرًا الكفر الأكبر أم أن هناك تفصيلًا في حقه على حسب الحامل له على الحكم بغير ما أنزل اللَّه؟

الثالثة: تنزيل هذا الحكم على المعينين له ضوابط، فلا ينزل الحكم على كلِّ من لم يحكم بما أنزل اللَّه فيُكفَّر.

- **المسألة الأولى في الحثِّ على الحكم بما أنزل اللَّه:**

يقول تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ٤٩ أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٤٩-٥٠].

فهنا أمر اللَّه نبيه ﷺ أن يحكم بينهم بما أنزل اللَّه وأكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ فهذا أمرٌ ثانيًا.

وأمرًا ثالثًا: ﴿وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾: دليل على أن الحكم بغير ما أنزل اللَّه فتنة.

ثم رمى أولئك المعارضين للحكم بما أنزل اللَّه بالفسق وصفهم

سبحانه بهذا الوصف الذميم نعت حكمهم -أيًّا كان هو- بالجاهلية، وسبب حكمهم بغير ما أنزل اللَّه هو قلة اليقين.

فعدَّة أوامر كلها من المؤكِّدات لرسول اللَّه ﷺ أن يحكم بما أنزل اللَّه.

وفي الآية الأخرى وصف اللَّه الذين يأبون الحكم بما أنزل اللَّه فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] إلى أن قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فوصفهم بادعاء الإيمان بما أنزل على الرسول وما أنزل على الأنبياء من قبله وهم منافقون، ودلل على ذلك بأنهم يريدون التحاكم إلى غير ما أنزل اللَّه من أحكام الطواغيت التي أمروا أن يكفروا بها لكنهم اتبعوا فخوخ الشيطان وهو أمرهم بهذا ليضلوا ضلالًا بعيدًا.

وعلامتهم الظاهرة: أنهم إذا دُعوا إلى الحكم بما أنزل اللَّه رأيتهم يصدُّون صدودًا.

وأمر اللَّه نبيه ﷺ أن يعظهم في أنفسهم بالقول البليغ.

وبين اللَّه في هذه الآية أن المؤمن الذي يتحقق إيمانه هو الذي يحكم الكتاب والسنة في كل نزاع، وينشرح صدره كذلك لهذا الحكم ويُسلِّم تسليمًا كاملًا لحكم اللَّه تعالى.

ونجد أن اللَّه تعالى قد وصف الذين لا يحكمون بما أنزل اللَّه بثلاثة أوصاف: الكفر، والظلم، والفسق.

فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

و﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

و﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وهذه الأوصاف الثلاثة يتصف بها الحاكم بغير ما أنزل اللَّه على حسب الحامل له على ذلك، وهي:

● **المسألة الثانية:**

إن قلنا: «إن الحكم بغير ما أنزل اللَّه طاغوت» كما قال المؤلف؛ فهل كل من حكم بغير ما أنزل اللَّه يعتبر طاغوتًا وكافرًا، أم أن هناك تفصيلًا كما قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾؟

والجواب:

من حكم بغير ما أنزل اللَّه مستحلًّا لهذا الحكم، أو معتقدًا أنه يساوي حكم اللَّه أو أنه أحسن من حكم اللَّه، أو أنه يسعه أن يحكم بغير بما أنزل اللَّه أو ما شابه ذلك كأن يكون محتقرًا للحكم بما أنزل اللَّه.

فهو كافر ظالم فاسق بمعنى الكفر الأكبر والظلم الأكبر والفسق الأكبر -الذي هو المخرج من الملة-.

على حسب الحامل له على الحكم بغير ما أنزل اللَّه.

ولو حكم بغير ما أنزل اللَّه في قضية واحدة مستحلًّا كفر، ولو استحل أو جحد بغير حكم كفر لإنكار المعلوم من الدين بالضرورة.

أما من حُكم بغير ما أنزل اللَّه ولم يحتقر حكم اللَّه ولم يعتقد حلَّه، ولم يجحده؛ حكم بغير ما أنزل اللَّه لهوى في نفسه... وهو معترف أنه مقصِّر

فيما أوجبه اللَّه عليه فهو مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب لكنه ليس بكافر، وقد نقلت نصوص كلام أهل العلم في كتابي «التوضيحات الجلية» وأنبه إلى أن الاستحلال شيء قلبي لابد أن يعترف به الشخص لا يدل عليه أن يحكم بغير ما أنزل اللَّه أو أن يُدَوِّن ذلك في دساتير ويأمر الناس بالتحاكم إليها، هذا وحده قد يكون مع عدم الاستحلال، والمسلم الذي ثبت إسلامه بيقين لا يزال عنه إلا بيقين، لا يزال عنه بشيء محتمل، فكيف إذا كان هذا حاكمًا.

وهذه المسألة من أخطر المسائل إذ لها علاقة قوية بتكفير الحكام.

وتكفير الحكام ينبني عليه نزاعات وخلافات ومفاسد ربما تعود بالخراب للبلاد والفساد للعباد، وهذا واضح.

والخوارج يجعلون هذه الآية نصب أعينهم في تكفير الحكام ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ويتعلقون بكلام لبعض أهل العلم يفهمون منه ما تهواه أنفسهم.

ككلام للشيخ محمد بن إبراهيم في كتابه «تحكيم القوانين».

وكلام لابن كثير في «البداية والنهاية».

وكلام للشيخ أحمد شاكر في كتابه «كلمة الحق».

وآخر للشيخ الشنقيطي صاحب «أضواء البيان».

والشيخ محمد بن إبراهيم له كلام مخالف لهذا في كتاب له آخر طبع بعد «تحكيم القوانين».

وكلام ابن كثير كلام عامٌّ في شأن الياسق، والبون شاسع بينه وبين

حكام الزمان.

وكلام الشيخ الشنقيطي له كلام بخلافه في نفس كتابه «أضواء البيان».

ومقصودي: أنهم يذهبون إلى مذهب الخوارج ويتعلَّقون بكلام لبعض أهل العلم إما يفهمونه على غير وجهه، وإما يتعلَّقون به وهو مخطئ فيه يؤخذ منه ويرد عليه كما أشار الشيخ ابن باز في جوابه على ذلك.

وذكرته في كتابي «التوضيحات الجلية».

- **وملخص تحقيق المسألة**:

أن الآية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

فسَّرها ابن عباس ترجمان القرآن بأنه ليس الكفر الأكبر، ليس كمن كفر باللَّه واليوم الآخر وهو قول تلميذه طاووس وغيره.

ويؤيد هذا سبب نزول الآية، أنها نزلت في اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ وامتنعوا من تحكيمه إذا حكم بغير ما يهوون.

وذكر اللَّه أنهم يسارعون في الكفر ويحرِّفون الكلم من بعد مواضعه.

فسحب هذا الحكم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ على قوم ينطقون بالشهادتين ويصلون ويصومون ويسعون في الإصلاح للأمة . . . إلخ؛ ظلم، وتحريف للكلم عن مواضعه.

وكما أنَّ الخوارج لم يعترفوا بابن عباس ولا ابن عمر وبقية الصحابة يوم أن ناظروهم؛ بل كفروا بعضهم، كذلك خوارج اليوم يفعلون مع أتباع ابن عباس، من سوء الأدب ومحاولة تحريف الكلم من بعد مواضعه ليكفِّروا الحكام بشطبة قلم، ثم يكفِّرون أتباعهم من الجيش والعساكر، ثم تكفير من لم يكفِّرهم، وتفجير الناس يتبع التكفير بالطبع، نتائج معروفة،

فراجع تحريرًا في «التوضيحات الجلية» الطبعة الثالثة لهذا، واللَّه الموفق.

والمقصود: أنَّ من حكم بغير ما أنزل اللَّه مستحلًّا كفر.

وكذا الجحود: وهو التكذيب باللسان دون القول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، وهم يعلمون أن ما أنزل هؤلاء إلا ربُّ السموات والأرض، فدل على أن الجحود انكسار باللسان دون القلب.

والتكذيب: وهو التكذيب باللسان والقلب معًا.

فمن كذَّب أو جحد أو استحل حكمًا من أحكام اللَّه كفر، وكذا من فضَّل حكم غير اللَّه على حكم اللَّه، أو قال: إنه مساوٍ له؛ يكفر أيضًا.

وكذا من بدَّل حكمًا للَّه ثم نسبه إلى اللَّه، كما يفعل اليهود لما نسبوا إلى التوراة حكم التحميم للزاني دون الرجم.

وهذا يُسمى التبديل، أبدل حكمًا بحكم اللَّه، ثم نسبه إليه، بخلاف الاستبدال، فإنه أتى بحكمٍ مخالف لم ينسبه إلى اللَّه، والذي يقتضي الكفر هو التبديل لا الاستبدال.

وكذا من استكبر على حكم اللَّه أيضًا يكون كافرًا.

فمن استحلَّ حكم اللَّه، أو جحده، أو كذَّبه، أو ساواه بغيره، أو بدَّله بغيره ونسبه إلى اللَّه، فهذا كافرٌ، وأما ما سوى ذلك فليس بكفر إن حكم بغير ما أنزل اللَّه، ولكن ليس تحت أيِّ نوع مما ذكر، فلا يكون كفرًا مخرجًا من الملة.

فلتنظر الآية مع أقوال الصحابة أفهم الناس للقرآن، عليهم نزل وهم أعلم بتأويله، مع سبب النزول يهتدي المهتدي، واللَّه الموفق للصواب.

● المسألة الثالثة :

أن تنزيل حكم الكفر على المعينين له ضوابط ، فليس كلُّ من وقع في الكفر يقع الكفر عليه ، كما أنه ليس كل من وقع في البدعة وقعت الحكم بالتبديع عليه ؛ لأن ثم أعذار ، وموانع كالجهل والسهو والخطأ .

وهذه المسألة -أعني : مسألة الحكم بغير ما أنزل اللَّه- من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان ، فعلى المرء ألا يتسرَّع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق ؛ لأن المسألة خطيرة نسأل اللَّه تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم ، كما أن على المرء الذي آتاه اللَّه العلم أن يبيِّنه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم ، وتتبيَّن المحجة فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ، ولا يحقرن نفسه عن بيانه ولا يهابنَّ أحدًا فيه ، وأن يقول الحق ولو كان مرًّا ، فإن العزة للَّه ورسوله .

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى**: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وَهَذَا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

الشرح:

● **قوله: «وَالدَّلِيلُ»:**

يعني: على وجوب الكفر بالطاغوت هذه الآية التي ذكرها.

وحاصل معناها:

أنه لا إكراه في الدين؛ لأن أدلة الدين صارت واضحة أوضح من شمس النهار، وقد تبين الرشد من الغي، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «**تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ**».

ولكنَّ المعرضين حالهم:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦] عياذًا باللَّه.

وناسب ختام المؤلف الكتاب بهذه الآية موضوع الكتاب.

والعروة الوثقى: هي الإسلام، هي لا إله إلا اللَّه.

وإذا تأملت في قوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ لرأيته أقوى وأبلغ من التمسك، فإن الاستمساك يدل على التمسك بقوة بخلاف التمسك والإمساك.

ولابد من الكفر بالطاغوت والإيمان باللَّه فلا يصلح إيمان بلا كفر بالطاغوت، هذا كذب ما هو بإيمان.

الإيمان إنما هو بالكفر بالطاغوت أصلًا ثم الإيمان باللَّه، فالإيمان باللَّه دون كفر بالطواغيت التي تعبد من دون اللَّه هذا إيمان جاهل لا يدري معنى الإيمان.

كما ناسب أيضًا أن يختم المؤلف كتابه بالحديث والآية المذكورة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

استدل المؤلف بها على إثبات أن الخمس التي ذكرها هي من الطواغيت.

● **وقول المؤلف: «وَهَذَا مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».**

أي: معنى لا إله إلا اللَّه: الكفر بالطاغوت.

فكأنه قال: (لا إله»: الكفر بالطاغوت؛ لأنه نفى العبادة عن كل معبود، وقوله: «إلا اللَّه»: إثبات جميع العبادة للَّه وحده لا شريك له.

وهذا هو الإيمان باللَّه الاستمساك بالعروة الوثقى، الإيمان باللَّه وحده، والكفر بما يعبد من دون اللَّه من طواغيت.

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في آخر فقرة في الكتاب:

«وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ».

الشرح:

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف.

أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وبعض أصحاب السنن وغيرهم بسندٍ ثابت لطرقه وشواهده ومنها: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول اللَّه ﷺ قال: «... **أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟**».

قَالَ: قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «**رَأْسُ الْأَمْرِ: الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ: الْجِهَادُ** ...» الحديث.

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أراد بإيراد هذا الحديث أن يبين علوَّ درجة الإسلام.

وهذا دليل على الإيمان باللَّه والكفر بما يعبد من دونه متمثل في الشهادتين اللتين فيهما الاستسلام للَّه بالعبودية -إفراده بالعبادة- وأشار إلى العمل بذكر الصلاة في الحديث ولا يقوم المسلم بغير عمل، وقد رجحنا في غير هذا الموطن تكفير تارك الصلاة الكفر الأكبر المخرج من الملة.

ثم ذكر ﷺ الجهاد في سبيل اللَّه؛ أي: أعلاه؛ لأن بالجهاد يعلو الإسلام فناسب الختام للكتاب بهذا الحديث.

فمن لم يكفر بالطاغوت فليس بمسلم ولا قام برأس الأمر. واللَّه الموفق.

ثم صلَّى وسلم على محمد ﷺ وقال: «**وَصَحْبِهِ**»: أي: جميع الصحابة.

والكلام على الصلاة فرضيتها، والتكفير بتركها محل إجماع عند الصحابة كما بينت ذلك بدلائله في غير هذا الموطن.

وكذا الجهاد في سبيل اللَّه لإعلاء كلمة اللَّه.

من الجهاد: ما يكون للكفار بالسيف، ومنه ما يكون للمنافقين، ومنه ما يكون لأهل الهوى والبدع لدفع تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين بالعلم ودحض حجج الجهال والمُلبِّسين وغيرهم، ومنه: ما يكون جهادًا للعصاة والبغاة كلٌّ على حسبه.

ومن الجهاد: ما هو فرض عين، ومنه: ما هو فرض كفاية.

منه: جهاد الدفع الواجب على الأمة كل من هو مستطيع، ومنه جهاد الطلب.

ومحل تفصيل ذلك وتحريره في كتب الفقه ما يناسب هنا الإسهاب في مثل هذا، ولكن المقصود هنا: أن المؤلف ختم كتابه بهذا الحديث لبيان منزلة رأس الأمر وهو الإسلام بالشهادتين.

كما أنه أراد أن يبيِّن أن ذلك أيضًا لا يكون بالدعوى ولكن بالعمل ولذا ذكر الحديث الدالَّ على عمود الإسلام وهو الصلاة، وهو عمل، والجهاد وهو عمل، فالفوز في الدنيا لا يكون بالتمنِّي.

وإنما يكون بالعمل مع تحقيق رأس الأمر الذي هو الإسلام، مع العمل الذي هو الصلاة والجهاد وغير ذلك من تنفيذ الأوامر الإلهية والأوامر

النبوية بالأعمال الصالحة والمسارعة فيها، ومن هذه الأفعال المأمور بها ما تَرْكُه كُفْرٌ، ومنها ما تَرْكُه معصيةٌ، ومنها ماتَرْكُهُ مكروهٌ فقط.

فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه فقد أَبَى، ومن ادعى الإسلام ولم يعمل كانت دعواه الإسلام كاذبة.

ثم ذِكْرُه الحديث الذي في آخره الجهاد: إشارة إلى ما يحفظ به الدين، فالصلاة تحفظ للمسلم دينه إذ لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة.

وحفظ الأرض والعرض والدين والتمكن من العبادة لا يكون إلا بالجهاد في سبيل اللَّه لحماية هذا وتوقيره. وانتهى المقصود.

أسأل اللَّه تعالى الكريم الواسع العفوَّ أن يرحم المؤلِّف والشارح، وأن يوفِّق القارئ والباحث، وأن يجعل لهم الثبات في الأسئلة الثلاثة في قبورهم بما كتبته هنا.

فالظن به سبحانه حسن.

كما نسأله أن يرحمنا ويغفر لنا ويبارك لنا وأن يجتمع من الخير في كتابنا هذا أعظم وأكثر مما اجتمع لغيري من الشرَّاح.

وأن يكتب لنا جميعًا الأجر والقبول والثواب.

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

كتبه

أبو يحيى محمد بن عبده

غفر اللَّه له وعفا عنه

بلطيم -كفر الشيخ- مصر

فهرس الموضوعات

مقدمة ٣

التعليق على بداية المؤلف بالبسملة ٧

التعليق على قول المؤلف: «اعلم رحمك اللَّه» ٩

الكلام على المسألة الأولى: العلم ١٢

التعليق على قوله: «ومعرفة نبيه ﷺ» ١٢

دليل إلى إيجاب المؤلف تعلم أربع مسائل ١٧

سبب تعبير المؤلف بـ«معرفة نبيِّه» دون «معرفة رسوله» ١٨

التعليق على قول المؤلف: «معرفة دين الإسلام» ١٩

التعليق على المسألة الثانية: «العمل به» ٢٢

التعليق على المسألة الثالثة: «الدعوة إليه» ٢٥

التعليق على المسألة الرابعة: «الصبر على الأذى فيه» ٢٨

استدلال المؤلف بسورة العصر على المسائل الأربع ٣٢

الكلام على تفسير سورة العصر ٣٢

التعليق على قول الشافعي: «لو ما أنزل اللَّه حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم» ٣٥

التعليق على إيراد المؤلف كلام البخاري: باب العلم قبل القول والعمل ٣٧

إيجاب المؤلف تعلم أربع مسائل والعمل بها ٤٣

عدد المسائل التي تكلم عليها المؤلف في كتابه ٤٤
إقرار المعتقد بالربوبية له أن يفرده سبحانه بالعبادة ٤٦
من المسائل التي تكلم عليها المؤل في كتابه غير الثلاثة ٥١
الشرك أقسام ٥٣
الموالاة والمعاداة ٥٥
التنبيه على ضعف سبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ٥٧
كلام الشافعي في الموالاة ٦٣
تفصيل الشيخ الفوزان في ذلك ٦٥
صور الموالاة ٦٦
تلخيص ملة إبراهيم عليه السلام ٧١
لماذا أمر اللَّه باتباع ملة إبراهيم عليه السلام ٧٦
البداية بالكلام على التوحيد والنهي عن الشرك ٨٠
الأصول الثلاثة التي يجب على المرأ أن يتعلمها ٨٣
دليل معرفة الرب سبحانه ٨٩
تعليق المؤلف على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ٩٤
تعليق على قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ . .﴾ ٩٧
أنواع العبادة وأدلة كل نوع ١٠١
الدليل على أن صرف بعض أنواع العبادة لغير اللَّه شرك ١٠٦
دليل الخوف من اللَّه وحده ١٠٩

قول سعيد بن جبير: التوكل جماع الإيمان ١١٧
دليل الرغبة فيما عند اللَّه ١١٨
سر الاستعانة في سورة الفاتحة ١٢٦
دليل جواز الاستعانة بالمخلوق ١٢٦
دليل الاستعاذة ١٢٩
الأشياء التي استعاذ بها النبي ﷺ ١٣٠
دليل الاستغاثة باللَّه ١٣٤
دليل الذبح لغير اللَّه ١٣٧
دليل النذر ١٣٩
كلام المؤلف عن الأصل الثاني: «معرفة دين الإسلام» ١٤١
مراتب دين الإسلام ١٤٣
أركان الإسلام خمسة وأدلة ذلك ١٤٦
معنى «لا إله إلا اللَّه» ١٥٠
شروط لا إله إلا اللَّه ١٥١
تفسير إبراهيم عليه السلام العملي لكلمة التوحيد ١٥٣
تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ . .﴾ . ١٥٤
دليل شهادة أن محمدًا رسول اللَّه ١٥٧
معنى شهادة أن محمدًا رسول اللَّه ١٦١
دليل الصلاة والزكاة وتفسير التوحيد ١٦٣
دليل الصيام ١٦٥
دليل الحج ١٦٧

كلام المؤلف على المرتبة الثانية: «الإيمان» ١٦٩
كلام المؤلف على أركان الإيمان ١٧٢
الكلام على الملائكة ١٧٥
أنواع الملائكة وذكر الأعمال الموكل بعضهم بها ١٧٦
الدليل الذي ساقه المؤلف على أركان الإيمان الستة ١٨٧
كلام المؤلف عن ركن الإحسان ١٨٨
حديث جبريل عليه السلام ١٩٠
كلام المؤلف عن الأصل الثالث «معرفة النبي ﷺ» ١٩٣
عُمرُ النبي ﷺ يوم وفاته وتلخيص فترات حياته ﷺ ١٩٦
أول الآيات نزولًا على رسول اللَّه ﷺ ١٩٨
بلدته التي سكنها ١٩٩
فترة دعوته ﷺ إلى التوحيد في مكة ٢٠١
مراحل دعوته ﷺ ٢٠٦
أمر رسول اللَّه ﷺ بالهجرة إلى المدينة ٢٠٦
الهجرة من بلد الشرك إلى بلاد الإسلام ٢١٠
فرضية الهجرة ٢١١
ضابط بلاد الشرك وبلاد الإسلام ٢١٤
سبب نزول الآية ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ . .﴾ ٢١٦
الكلام على ضعف حديث «أنا بريء من كل مسلم يعيش بين ظهراني المشركين» ٢١٧
كلام حسن للشيخ العثيمين بشأن السكنى في بلاد المشركين ... ٢٢١

ثلاثة شروط للإقامة في بلاد المشركين للدراسة ٢٢٢
الكلام على إسناد حديث «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة» . ٢٢٤
نزول الفرائض بعد الاستقرار بالمدينة ٢٢٦
الكلام على وفاة رسول اللَّه ﷺ وسياق بعض الأحاديث في ذلك ٢٢٨
بقاء دينه ﷺ وأنه لا خير إلا وقد دل الأمة عليه باعتراف المشركين ٢٣١
من أعظم ما دل عليه رسول اللَّه ﷺ التوحيد وجميع ما يحبه اللَّه ٢٣٤
افتراض طاعته ﷺ ٢٣٥
دليل إكمال الدين ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ . .﴾ ٢٣٧
الدليل على موت رسول اللَّه ﷺ ٢٣٩
دليل لموت الخضر عليه السلام ٢٤٠
دليل البعث ٢٤٢
دليل الحساب والجزاء بعد البعث وكفر من ينكره ٢٤٤
أول الرسل -عليهم الصلاة والسلام- هو نوح عليه السلام ٢٥٢
كل أمة أرسل اللَّه تعالى إليها رسولًا ٢٥٥
الكلام على تفسير الطاغوت ٢٥٨
تقسيم حسن للشيخ العثيمين للناس مع حكامهم ٢٦٠
تعداد الطواغيت الذي رؤوسهم خمسة ٢٦٣
التعليق على من حكم بغير ما أنزل اللَّه ومتى يكون طاغوتًا ٢٦٨
مسائل ثلاث تتعلق بالحكم بغير ما أنزل اللَّه ٢٦٩
ملخص تحقيق المسألة ٢٧٣
تعليق المؤلف على قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ . .﴾ ٢٧٦

مناسبة ختام المؤلف للكتاب بآية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ . .﴾، والحديث «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه . .» ٢٧٨
الفهرس ٢٨١

* * *

https://t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah